الطبعة الثانية

بشير أبو زيد

عذراً... أحببتك

رواية

الفارابي

عذراً... أحببتك

بشير أبو زيد

عذراً... أحببتك

رواية

دار الفارابي

الكتاب: عذراً... أحببتك

المؤلف: بشير أبو زيد

لوحة الغلاف: تصوير جاد دياب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آذار 2012

الطبعة الثانيـة: تشرين الأول 2013

ISBN: 978-614-432-115-7

رسالة البطل

لم أكن أعلم يوماً أنه بالإمكان التغلب على فيزياء الطبيعة!!

كلّنا يعلم أنّ الأشياء تتدحرج نزولاً إلى الأسفل، لكن، تلك الكرة البيضاء كانت، كتلة مشاعر وعواطف تتدحرج بعيداً إلى القمم... تمرّ بقطّاع طرق، عشّاق هوى، مصّاصي مشاعر، يسلبونها شيئاً من بياضها، يروون به قلوبهم المتحجّرة، كلّما مرّت بهم تسألهم عن حال هواهم.. فكلّما أعطت من بياضها، تلوّنت بلون «الحب» الأحمر وتابعت مسيرها...

أنت... تلك الكرة.. نعم، كانت أنت... تابعت تدحرجك المعاكس وأنت لا تعلم أنّ اللون الأحمر الذي راح يغطيك ليس لون الحب، بل هو لون الموت النابع من قلوب تحولت أحجاراً، ورمت عليك ببقايا قلوبها الطاهرة.. تابعت حتى اكتملت كيميائيّة «الحب» الأحمر لديك، بعد أن أعطيت ما أعطيت من بياض مشاعرك، فأنتجت شعوراً مبدعاً، ليس فقط في كتابك هذا، بل أنا على يقين بأن مثل

هذا الشعور سيتخطى حدود ذاكرة القرّاء، ليبقى راسخاً ونابضاً في قلوبهم العاشقة...

ها أنت بشير أبوزيد... صديق يأبى القلب العزوف عن استماع نبضاته.. روحٌ تجول في أصقاع الدنيا تبحث عن قلوب جائعة، تعطيها من نقائها، فتنعشها.. ها أنت، يا صاحب القلب الكبير والعقل الكبير والدنيا الكبيرة...

صديقي... من صفاء قلبك تقطّرت دموعك، فروت قلوباً هائمة، وأيقظت عقولاً نائمة... من دنياك الواسعة اخترت قصة عشق، مزجتها بخيالك الحالم، وغمستها بدموع فؤادك، فظهّرت قصةً جامعةً للعقل والقلب والروح والحجر والبشر... قصة أبدعْت فيها، ففصّلْت فيها، وكأنك الذاكرة التي لا تنسى أبداً... أبدعْت قصةً خلّدت أبطالها، كلٌّ بشكلٍ ومظهر، وأبطالها باتوا على وشك نسيان تفاصيلها...

فليدم قلمك، قلماً يغرف من ذكريات العقول والقلوب، يعطيها الحياة لتبقى القلوب نابضةً غير متحجّرة، والعقول واعية لكل قلب يعشقها...

تابع تدحرجك، ولكن لي أمنية صغيرة: ابقَ بعيداً عن مخالب العشاق، كي لا تفقد ما تبقّى من بياض روحك...

إهــــــداء..

إلى أمي دوماً...

إلى كل رجل أحبّ الحياة بما فيها من فجائع..
إلى كل من ـ ورغم الشقاء ـ أصرَّ على البقاء..
إلى كل من حلم واستيقظ مخدوعاً..
إليك يا صديق العمر..
إليك دوماً...

إلى كل امرأة صخرية جامدة..
إلى كل من تحدق إلى الشمس بعينين حادتين ويزعجها صفاء القمر..
إلى كل من تعشق الأشواك وتخاف الورود..
إلى أمثالكِ يا...

أرفع هذا الكتاب

إيقاعات

كم مرّة يمكن للشمعة نفسها أن تشتعل وتنطفىء كلّما هبت رياح العشق؟

وكم مرّة يمكننا أن نتحدى المستحيل ونقف بتوازن على ذاك الفتيل دون أن نشعر بلهيب الحريق الأوّل؟ دون أن نصرخ.. دون أن نتألّم مرّة أخرى..

على كل خيط رفيع أسود ثمة عار سلّم نفسه لقدَر الحرائق، وراح يرقص..

لا الموسيقى، لا الفن، وحدها النار ترسم خطواته.

تارة يرفع قدمه ويدور عكس عقارب الزمن، وأخرى يتمايل ارتطاماً دون أن يلمس الأرض تماماً.

وفي الغرفة المظلمة هناك من جلس بعينين احترق الشوق فيهما مكتفياً بنور شمعة.. وعلبة ثقاب.

صاحبها يدري تماماً أن لأعواد الثقاب نغماً، لا ينافسه عود.

يقترب بحذر، ويقرر أن يخوض التجربة.. يخاطر بك.. ويشعلها!

وأنت تبدأ رقصاً.. لا لأنّك تريد أن تشبع رغبته.. لا لأنك تهوى الموسيقى على أكمل وجه.. بل لأنّه وسط النار والحرائق الشاهقة لا بدّ لك أن ترقص بجنون، وترقص، وترترقص، وإلّا.. فستقع أرضاً!

كـ "فان غوخ" وعاشق "الموناليزا" ثمة من ربط قدَره بإنسان على متن شمعة.. وقرر من جديد أن يتخذك حبيباً.

وهنا نيرون روما، ينتحر غيظاً.. فذاك الذي أشعل آلاف الأوراق والكتابات ما استطاع يوماً أن يشعل امرأةً.. كيف؟! لست أدري.

أما عاشقك، فبقوة الحبّ.. أشعل الدنيا!

يقترب بشفتيه، وبوقود أنفاسه يقسم أن يقتلك قبلةً.. قبلة!

فتبتسم ساخراً وكأن الموت يعنيك.

وحينها تدري: الشريط الفاصل بين الجنة والنار- مهما كثرت الحرائق- ليس سوى قبلة!

يبلغ ذروته ويحين وقت النعاس.. فينفخ تجاه عينيك لتسقط كورقة تطاردها الريح. لتمضي الليل بأكمله تتسلّق إلى أعلى الشمعة، وتنتظر كي يأتي أخيراً ويبدأ العرض من جديد.

متى يأتي.. لا تسل.. لن يأتي.

وفجأة ذات زمن.. تفرغ علبة ثقابه من الكلمات ويقرر أنّه ما عاد بإمكانه أن يعشق.. ويعترف بأنّه ملّك واستسلم.

وفي لحظة جنون جهنمية، يحمل الشمعة التي اتّخذ منها وطناً صانعاً بها أجمل أيام حياته، ويرميها خارجاً تحت المطر. تباً!

متلفظاً أنفاسك الأخيرة يصعد دخان عشقك إلى سماء أخرى، وفي بالك.. ذكراه يحترق!

إنّه الحب.

أن تشتعل كل يوم بأسلوب جديد للرغبة والمتعة..

أن ترقص على وقع النار وتتكلم لغات منقرضة.

الحب هو أن تتغذى من عود ثقاب وتعدّها عوداً بعد آخر نحو موتك البطيء. هو أن تعلن انتماءك السريّ لشفاه من تحبّ، وأن تعترف أن لا موت أسرع من الانتحار في عينيه. هو أن تسقط متألقاً حين يرميك خارجاً دون أن تسل!

وتفتخر بنفسك ضحية الحرائق والريح والشجر.

وأن تخبر العشّاق جميعاً عن تجربتك والنار.. وتهمس لهم: إحذروا الشتاء.. فشمعة العشق إن أطفأها المطر.. ماتت أبداً.

***

كنتَ تقبّلها بأنفاسك على مقربة من شفتيها..
كنتَ تقبّلها بنظراتك على مقربة من جسدها..
بقلب متصدّع الجدران على مقربة من قلب صلد..
حلمتَ بها تقبّلك..
حلمتَ بها تقول أحبك..
حلمتَ بها تعود إليك..
إذاً.. كانت هي حلمك...
قد تذكر قولي يوماً:
«وحدها الأحلام لا تتحقّق»
قد تذكر قولي يوماً.
هنيئاً لنا بأحلام تبقينا إلى أمد الحياة.
هنيئاً لنا بأحلام نرسمها، نرقصها، نكتبها على صفحات.
هنيئاً لنا بأحلام تحوّلنا إلى أموات.

وها أنا اليوم..
بعد أن افترقنا..أمشي بضيافة المطر، عند مفترق القدر،

أمشي على جسد الذاكرة، أتنقل ببطء خوفاً من أن ألمس جراحه، خوفاً من أن نتألم مرّةً أخرى.

عندما نمرّ على أجسادنا في مقبرة الذاكرة، علينا أن نحرص على أن لا نوقظها.. لأن اليقظة تعني الاشتياق، تعني اللوعة، وتعني الألم والعذاب من جديد.. في مقبرة الذاكرة علينا توخّي الحذر، علينا أن نقرأ الفاتحة أو نقدّس ونرحل مسرعين.

إنها المقابر تعيدنا دوماً إلى ذاكرة الأشياء.

أنا أكنّ احتراماً كبيراً للهندوس والبوذيين، لأنهم يوم توفي بوذا لم يضعوه في صندوق، إنما أحرقوه وحوّلوا جسده إلى رماد، ورموه في البحار. هناك بعيداً عن ذاكرة الأشياء.

إلا أنه اليوم ذاكرة في أكثر من كتاب.

ولذا سأكتبكَ ذاكرةً في كتاب حذراً من الانتهاء.

أتساءل الآن..

لماذا وضعتَني قدَراً بينكما؟ لماذا سجنتَني بين صفحات هذه القصة؟ لماذا أردتني أن أصطفَّ بطلاً إلى جانبكما؟

عذراً.. بدءاً سأعترف.. قصتي لا تحمل أبطالاً.. تحمل فقط أناساً عادوا دوماً بالانكسار.. تحمل من تخلّت عنهم بطاقات هُوياتهم فأصبحنا لا نملك أسماء..

لكنني اليوم..

اليوم.. عندما أذكر اسمك، قد أركض بعيداً عن الأشياء.. بعيداً عن المباني الضخمة والجبال أيضاً.

هناك أسماءكالقوانين الطبيعيّة، عندما تفرض نفسها، كأنّها زلازل وبراكين.

هناك أسماء كالإعصار، كاسمك أنتَ.. عندما نلفظها، عندما نسمعها أو نتذكّرها، لا يمكننا سوى وضع القهوة أو ما في يدنا جانباً، ونقف لحظات صامتة دون كلام.. دون حركة.. ودون شعور أيضاً.

عندما أذكرك أيها الإعصار، لا يمكنني إلا أن أضع القلم جانباً، وأجمع الصفحات البيضاء لأترك مجالاً لدمعة.

أينما كنت الآن، اشتقت إليك.

اشتقت إلى اللّيالي التي وصلناها مع الفجر.

اشتقت إلى ليالي السعادة وليالي الحزن..

إلى أيام الغضب، وأيام المسامحة..

اشتقت إلى أيام الصداقة.. أيام الصداقة الحالمة..

- أصبح العشاء جاهزاً

تصرخ أمي من خلف باب مقفل لم أفتحه منذ الصباح.. وتذهب.

أبقى أنا مكاني لأواصل أفكاري.. ما الذي أتى بي إلى هنا من جديد؟ما الذي أتى بي إلى مكان لا يحمل سوى

ذكرى أشخاص.. إلى حيث كنا نجلس يومياً لنضحك كالأطفال.. أو ربما، نبكي.

الماضي يجري في شراييني.

على غفلة من قدَر، بعدما تغير كل شيء.. يجري.

تغير كل شيء.. تغيرنا نحن، وأهدافنا.. تغيرت مبادئنا، وأحلامنا..

أما ولكن.. ذاكرتنا...

كيف يمكنني اليوم أن أصدق بأنكما وكل هذا الجنون حدثتما صدفة؟

لا، لم تكن صدفة.. كانت مجموعة مصادفات أتت دفعة واحدة لتقلب أيامنا كلها، وتحرق صفحات ماضية لا تستحق الذكر.. مصادفات وضعتنا كلاً على مركب في بحر الأيام، لنلتقي من جديد في كل عاصفة قدر لنبتهج بغموض، وكنّا عندها نستغل فوضى الأحداث كي نقفز من مركب إلى آخر، دون أن ندري بأننا نقفز من وهم إلى آخر فقط لا غير.

وحدها المصادفات تتقن السعادة المسروقة بذكاء.. الملغومة.

ملغومة كانت سعادتنا، فما الذي أتى بي إلى حقل الحواس كي أتجول وحدي بحجة كاتب.. وأيضاً، بغبائه.

أن تتحرش بالماضي بحجة قلم لأن لا قوة لك سوى

حبره، وأن تذهب إلى أبطال ذاكرتك بخوف رجل، فتتنكر لهم بكتاب، فأنت حتماً، كما البارحة ستسقط.

كي تذهب بشهامة رجل، عليك أن تخلع عقلك، وكل أدواتك وحججك الفنية.

الفن.. وهم الضعفاء.

يسترجعني قولها في أحد الأيام:

- يا لك من مجنون.. كلماتك إباحية دوماً، والأجساد في لوحاتك عارية.

ثم علّقت كنقطة على سطر:

- حبرك لا يعرف الاحتشام!

لم تتوقع شيئاً كهذا:

- سامحك الله على كل ما تقولين.. كلا.. لست مجنوناً أو فنان تعرّي.. لكنني لا أملك قدراً كافياً من المال كي أشتري لأبطالي ما يكفيهم من ثياب.

أضفت أمام ذهولها:

- ولا تنسي بأن الفن وجد ليكتبنا على حقيقتنا.. عراة!

إذاً.. بعري كاتب.

من الذاكرة إلى النسيان.. مروراً بكما.

من صفحة إلى أخرى.. إلى حلم.

من حلم إلى آخر.. إلى فاجعة.

الفاجعة؟

لن أكتب عنها الآن. سأكتب فقط عن تلك الأيام الجميلة التي ذهبت كما أتت.. ركضاً.

الفاجعة.. ستقرأونها في أوراق لاحقة، أو ربما، في كتاب لاحق.

قبل اليوم، كنت أعتقد أنّ الأشياء الحقيقيّة لا تنتهي أبداً.. وكل ما ينتهي لم يكن له وجود بالأساس.

ظننت في ذلك الماضي أنّنا لن ننتهي..

ولكنني الآن أملك شجاعة الاعتراف، لأقول إنّ هناك صفحات في العمر أجمل من أن تدوم.. وثمة نحن، أجمل من أن نكون.

العشاء أصبح جاهزاً، لكنني أترك الباب مقفلاً.

عاري الصدر، وببنطالون سأرميه عندما أنتهي من أول فصل في هذا الرواية أخرج من باب آخر إلى شرفة.

لقد علّمتني الأيام أن الكتابة خطيئة، ولا أكثر نجاسة من حبر الماضي، ولذا عليك أن تمارسها عارياً، وأن تستحم بعدها بعطر من نسيان.

عليك أن تمارسها عارياً، وفي الظلمة ربما.

إذاً بصدر عار جانب وردة أهداني إياها رجل كان أبي، أقف ويأخذني شذاها بعيداً إلى حيث رحل.

لا أكثر إجراماً من الميت.. فهو وحده قادر على أن

يخلف وراءه فجائع عاطفية وكوارث رحمية.. أن يردي الكثير من الضحايا أرضاً بميتة واحدة.. صيحات تكسر الصمت هنا، وهناك، صمت صيّاح.. الكثير من الخيبات، والأشواق المسروقة سلفاً.. بعض النظرات الأخيرة للوداع.. وبرصاصة من جسد بارد، يشعل حمماً من الدموع، تاركاً مجالاً لكلمات معدودة كي تسأله بمرارة: كيف سأشرب نخب العيش من بعدك؟!

لا أدري لماذا أكره الورود وتستفزني حتى الغضب.

لا.. لم أكره الورود على الإطلاق، بل أكره كل تلك التي ذكرتني بها.

فما ذنبي إذا جاءت هذه القصة على شكل وردة، بجمالها، وعطرها.. وأشواكها.

نعم.. أكرهها.

أكره امرأة كنتَ أنت تعشقها منذ الأزل، وأصبحت أنا أحبها بعد رحيلك.. إلى الأبد.

من شرفة كانت شرفة أبي وأصبحت شرفتي، والتي ستغلق أبداً ساعة إقلاع الطائرة بي إلى هوليوود بعد شهرين أنظر إلى قرية، كانت قريتي.

كفررمان... كفررمان... كفرموسكو... لا أدري.

فحتماً هناك من كفر بعشقها وجنونها.

سؤال واحد أجتاز به مرة أخرى كل الشبهات علّني أجد أخيراً السبب الذي دفعني لأكتب هذا الكتاب:

لماذا أعود اليوم بالذات لأضع نفسي أمام خيبةٍ حدثت ذات يوم.. ذات ساعة.. ذات مكان؟

ليست مصادفةً أن أكون ما زلت أذكر ذلك الحديث الذي به بدأ انتهاء كل شيء بيننا.

سأكتفي بالقول هذه المرة: الحديث الذي مات به عمر صوتنا.. لندخل.. عمر صمتنا.

ليست مصادفةً أن أكون ما زلت أذكر يوم قلت لي مازحاً:

ـ هل ستنساني يوماً؟

أجبتكَ بثقة:

ـ أليس ذلك الوعد الذي قطعناه مذ بدأت صداقتنا؟

علّقتَ:

ـ هل أنت أيضاً تعيش من أجل وعود لا تستحق أن تأخذ مكاناً في قلوبنا؟

بعد شيء من الصمت، قلت لك:

ـ أليست بمجرّد أن نطلق عليها اسم «وعود»، تصبح واجباً يحظر علينا نسيانه؟

كان عليّ أن اقول عندها: «هل أصبحت صداقتنا وعداً لا يستحقّ الذكر؟».

كان عليّ أن أقول أشياء كثيرة..

بعد بضع ساعات من ذلك اليوم، جئتك على الهاتف..

دون أيّ سلام ودون أيّ استفسار سألتك السؤال نفسه.

لم تكن مهيّأً لتعطي إجابةً على هكذا سؤال طرحته منذ ساعات، لكنك قلت:

ـ النسيان ليس بيد الإنسان، ولا يمكننا حتى أن نتحكّم به.. ولكنني أريد أن أبدأ حياةً جديدة.. فأتمنى أن أنسى كل شيء.

تباً...

منذ ذلك اليوم بدأ الصّمت..

لا أحكي.. لا أعبّر.. أخفي ألماً من الخذلان الذي أصابني..

نحن دوماً في صراعنا للتخلّي عن الأشياء، لا نواجه سوى الخيبة والخذلان.. نواجه شماتة ذاتنا بنا..

هذا هو الألم الذي رافقني بعد أن فعلت المستحيل من أجلك..

مرّ أسبوعان وأنا على حال الصمت نفسها..وإذا بك تسألني:

ـ ما بك؟

وكأنّك تسألني: كيف حال الخيبة التي أصبتك بها؟

قلتُ:

ـ أصبحت سعادة البقاء قربك تمويهاً أهرب به من الفاجعة التي تطرق الباب بإصرار وأنا أرفضها.. ظنّاً مني أنها أتت مبكرة.. تماماً كما أتينا الصداقة في الوقت الخطأ..

ألم نأتِ الصداقة في الوقت الخطأ؟

ثم أضفتُ:

ـ هنالك دوماً من يتألّم عنّا.. وثمة آخر يتألّم منّا.. لكنني معك دخلت التجربة بضريبة مضاعفة.. دون أن أتألّم عنك فقط، وجدتني أتألّم منك أيضاً..

حنيت رأسك صامتاً.. بمذلّة ربما..

كدت أبكي حينها.. لكنّني استجمعت كبريائي قائلاً:

ـ تعلّم ألا تبكي لإنسان لا يعرف سوى سيل الدموع.. لن يلاحظ دمعة لأنّه مستودع لها.. لا تنتظر العاطفة ممن لا يحبّ نفسه، فالحب يبدأ من الذات أولاً.. ومهما حييت، لا تتوقّع السعادة مع إنسان لا يعرف كيف يسعد، ففاقد الشيء.. لا يعطيه.

كنت آنذك رجلاً، أو ربما شابّاً على مشارف رجولة. نحن لا نصبح رجالاً إلا يوم تُغرقنا الحَياة في خيباتها، وتصفعنا رياحها المجنونة، وتنهار علينا جبال أنانيتها.

عندها فقط.. نصبح رجالاً.

«أتمنى أن أنسى كلّ شيء».

هل نسيت حقّاً، أم أنّ ذلك كان حلماً أضفته إلى أحلامك التي...؟

لا أشعر بالندم اليوم، بل أفتخر أنني تعلّقت بك ملء قلبي.. لقد وفّر عليَّ ذلك عمراً من الخيبات والهزائم. كانت كلّ اكتشافاتي على يدك، فوحده الذي نحبّه أكثر من أنفسنا، قادر على أن يعلّمنا أصول الحياة.

آخ.. كم كنتَ صديقي مدهشاً.

مدهشاً في غرابتك.. في إخلاصك وخيانتك.. في انتصاراتك وهزائمك.. في ألمك.. عشقك.. جنونك.

مدهشاً في تصرّفاتك المعاكسة.

في صمودك أمامها.

أغلق باب الشرفة المفتوح على خيبتي، بينماها هي ذي الذاكرة تشرّع أكثر من باب للقائنا نحن الثلاثة... لنلتقي مع العشق والصداقة.. مع الحلم واليقظة.. مع الصمت.. في مكان واحد.

أو، إذا صحّ القول.. في كتاب واحد.

***

عندما ندخل هذه الدنيا، يعرّفنا الله إلى كلّ من حولنا.. نكتشف الأشياء كما البشر.. نمر على الناس، سعاداتهم وأحزانهم.. تفضحهم ثقوبهم القدرية، وتلك الحفر المختبئة عند منعطف الأيام..

يرحلون أو ربما يبقون.

لكن هناك وجهاً وحيداً يخفيه عنّا.. وجهاً لأناس آخرين، يطاردونك.. كما في رحلة صيد عشوائي.. يرمونك معلقاً رأساً على قدم في فخاخهم.

ويكون لنا مع كل واحد منهم قصة، أو.. أسطورة.

ذلك الوجه الذي لا يعرّفنا إليه..الوجه الوحيد الذي نأتي.. لنُغرم به.

كل ما يبدأ.. على حافة الوجوه.

ثمة وجوه تأتي دون أن ننتظرها.. فتمضي لأننا لا نحتاجها.

وأخرى تأتي في التوقيت الخطأ، نصطدم بها، ونحرّك غضبها.. فترحل دون أن ندري لعبة القدر التي كادت تجمعنا وإياها حينها.

ووجوه أخرى لا تأتي أبداً، فقط لأننا كنّا منذ الأزل.. ننتظرها.

وجوه بائسة.. ووجوه خبيثة.. تمر فيما بينها وجوه مشرقة يقولون بأنها سعيدة.

كلها.. تمضي.

لكن ثمة أخرى.. غريبة.

تتوقف أمامها طويلاً، تتصفحها، تفتش في معاجم نظراتها عمّا يختبئ فيها من الانتصارات والهزائم.

تنظر إليها كثيراً.. تحللها.. متوهماً أشياء كثيرة.. دون أن تتأكد من شيء واحد.

وقد يمر الزمان دون أن تراها مجدداً، فقط لأنك فضحتها من النظرة الأولى.

وأخرى، يمر الزمان عليها دون أن تفضح أي شيء فيها رغم أنك تكون قد سكنتها لسنوات.

مرّت الأيام..

وما زلت، بعد كل الذي حدث، أجلس لأسأل نفسي سؤالاً غطّى غبار السنين ملامحه.

في النهاية، من منّا فضح الآخر؟

سؤال أدري تماماً بأنني لا أريد له جواباً.. حتماً!

ففي الواقع، لست مستعداً الآن لأعترف أنه كان من نصيب كل منّا فضيحة.. وخسائر فادحة.

أنظر إلى صورة كنت أملكها لكما.. وأصبحَت اليوم تملكني.

أنسى أمرك للحظات وأتمعن في رسم امرأة تقف إلى جنبك بفستان أسود.

هي التي تتحدى الحزن بالأسود، وتلبسه ببهجة وإغراء.

هي التي ترمي الرجال عشوائياً وتخفيهم تحت أوراق رغبتها فخراً.. وتصطادهم بجرّة نظرة.

كم رجل مات عند عينيها؟

هي التي تتمتع بنصب فخاخ القدر.. كيف لمن بذروة الرجولة، ألّا يتعثر بها أرضاً؟

كحبّها.. تأتي مباغتة على صفحاتي هذا المساء.. تمتطي عشقاً من زمن مضى.

مصباح كل وهم.. تباً.. ما أجملها!

أجمل الخطايا على الإطلاق.. الله.. ما أمتعها!

أشعل سيجارة..

وعلى الطاولة المقابلة لذكراكما تبلغ الخيبة ذروتها.

كما على سرير لم نلمسه بعد.. تشهق ذاكرتي.

وأفكر.. ما الذي يبقيني هنا لشهرين قبل أن أسرع لأحمل نفسي وأحلامي إلى مدينة أخرى.. حيث هي؟

حماقة!

أتجاهل المطفأة المتربعة أمامي على طاولة، وأبعثر الرماد أرضاً.. كما هزائمنا.

وبعدما نسيت أمرك للحظات أعود إليك،وأنسى أمرها لكتاب.

من خيبة بفستان أسود، أجتاز مشاعري إلى صورتك وأنظر إلى عينين مات فيهما بريق الأمل.

أفتش عن عصر يسكنك.. فلا أجده.

أحاول أن أرى فيك روما تحترق بنيرون من عشق.. فلا أجد سوى رماد.

أو رجل من كوبا الثورة.. فيقابلني منجل مكسور، ومطرقة حمراء.

خلف أوهام وأقاصيص رصعت التاريخ.. أراك مختبئاً.

في مدن كثيرة...

يحبّ الناس بعضهم بعضاً للتلذّذ بمتعة الوصال... كي يحظوا بفرحة التلاقي بعيداً عن اللوعة...إنها مدن الحبّ تحت المطر، إنها مدن الدروب اللامتناهية... الليالي الأبديّة..مدن الشواطئ الذهبيّة.. مدن السماء.. مدن الأحلام المتحقّقة.. أحلام ليست جديرة باسم الأحلام.

في مدن كثيرة.. الحب سعادة.

عكس الناس، أردتَ أن تجرب معها ألم الحرمان.. أردتَ أن تجرب معها الأشياء المميّزة، تلك البعيدة عن الطبيعة.. عكس الناس الذين يجتمعون في عيد الحب، أردتَ أن تجرب معها عيد الذاكرة، تلك التي تحفر في قلبك كما تحفر على الزجاج.

تلك التي لا يمكن محوها إلا عبر الانكسار..

متى ستسقط الجدران؟ متى يرتفع صوتها...

ولكن من ينتظر نطق حجر.. وينتظر أحجاراً لم تملك صوتاً، لا تملك صوتاً، لن تملك صوتاً.

أجلس على سريري وأحاول أن أجمع أحداثاً أرفعها إليكَ في كتاب.. لا أرى من حولي سوى أوراق مبعثرة.

نحن الشرقيين تعوّدنا أن نحاط بالأشياء، تعوّدنا أن ننشغل بكل ما حولنا من أوهام.. تعوّدنا أن نكون دائماً وسط مأساة وعذاب.. تعوّدنا أن تسقط الجدران علينا في قضية وطن، كما تسقط جدران قلوبنا في قضية حب.

تعوّدنا أن ننزف تحت الركام كما عوَّدنا امرؤ القيس أن نبكي على الأطلال.

تعوّدنا أن يهدينا الدهر أيام عذاب..

اليوم لم يعد الدهر كما قال الإمام علي بن أبي طالب:

«الدهر يومان.. يوم لك ويوم عليك».

لا.. قطعاً، عذراً إمام..

عندنا الدهر أصبح أياماً.. ولسوء الحظ، كلها علينا..

أنت هنا لا شيء لك، إلا أنك قد تكون لأشياء كثيرة.. قد تكون لرغبات، قد تكون لوطن ربما، وقد تكون لفتاة أيضاً.

***

ذات يوم، منذ سنين، أنت اخترت هذه الفتاة، وسجنت نفسك بين أصابعها.. دون أن تدري ما قد يحصل برحيلها.

هي التي لم تأتِ لتبقى.. إنما..

لم تدرِ حينها ما قد تحمله كلمة ذكرى من معنى.

«في لحظات الخلود الصغيرة، لا نعي معنى كلمة ذكرى، تماماً كما لا يعي الطفل لحظة ولادته، موته المحتوم ذات يوم».

لماذا صعقني هذا القول للكاتبة غادة السمان، ورحت أبكي صامتاً كطفل هشّم لعبته بيده.

تراني اكتشفت أنّ هذا هو سرّ صداقتنا التي ولدت بشيء من الخوف والروعة، والتي كادت تموت مع موتك تلك اللحظة.

ألهذا كانت صداقتي بك.. صداقةً مَرَضِيَّة؟!

كان عليّ حينها أن أتوقّع عمر صداقة ولدت بصاد الصدمة، ودال الدم، وماتت بقاف القلم وتاء الـ...

وكان عليّ أن أحذرأيضاً.. كان عليّ أن أحذر من أناس لا يريدون قتلي، بل يريدونني أن أتألم حتى الموت.. أناس لا يكرهونني، بل يحبونني بشيء من الحقد..

هكذا.. قررت أن ترحل.

دون أي سبب صارم.. كلص هارب قررت الرحيل.

لم تكن ذلك اللص الذي سرق أشياء باهظة الثمن لا يمكن تعويضهايوماً. كلا.. كنت من ذاك النوع الذي خرّب، كسّر، وترك أرضاً ما لا ترتبه الأيام.

يستحضرني قول الأديب والفيلسوف اللبناني، جبران خليل جبران:

«حاجات الإنسان تتبدّل، ولكن محبّته لا تتغيّر».

والغريب في قوله هو ذلك التقدّم الزمني الذي به تغيّرت كل المقاييس العاطفيّة بين اليوم ويوم جبران، بحيث أصبحت محبّة الإنسان لا تتغيّر إلا يوم تتبدّل حاجته.

مات الإخلاص مع أصحابه، وماتت التقاليد..

بماذا يختلف مخلصو يومنا عن الفيلة والدببة وأسماك القرش؟

لا شيء.. كلّهم مهدّدون بالانقراض!

أرتدي قميصاً وربطة عنق قبل أنْ أذهب إلى حفل لم أحضره منذ سنوات.. إلى المكان الذي بدأت فيه قصتكما.

حماقة بعد أخرى.. أستعجل الوصول، إلى أيام كثيرة الثقل، كنت أنا من دفع ثمنها.

حماقة بعد أخرى أفصّلها على صفحات هذا الكتاب كي أتلذذ بهذا الطعم الغريب لقصّة.. لم تكن قصّتي.

أيجب أن أبكي؟.. أم يجب أن أضحك؟

في حالة كهذه، لا ينبغي أن نعبّر عن أيّ مشاعر. ولذا، سأكتفي بالصمت فقط.

ثمة من مات ألماً، وآخر عاش ليؤلم.. ولذا لا بدللأنسان أن يختار ذات عقل بين ما يستحق من أشياء، ومن لا يستحق شيئاً، مقرراً رغم كل العذاب أن لا خلاص له إلّا بالرحيل.

نحن دوماً، عندما نحبّ أحداً، يصبح بحكم العاطفة شفيعاً أو قدّيساً معصوماًمن الغدر والخيانات الجزئيّة. لكنّنا فقط يوم نقرّر أن نستيقظ من نوبة النعجة الغبيّة، نكتشف أنّ الذي بايعناه نبيّاً لا يستحقّ هذا القدْر من القرابين والتضحيات.

لكنني لم أكن كباقي الخراف الغبيّة التي لم تتعلّم ممّن سبقوها إلى الأعياد وفي المناسبات.. كنت من أولئك الذين يتقنون التضحيات بذكاء.

يتقنون التضحيات بسعادة وإخلاص.

لم أكن خروف وفاء فحسب.. كنت قطيعاً منها.

كم كنت مخطئاً!

لكن لا تحزن.. أنت أجمل أخطائي على الإطلاق.

أجمل خيباتي.. أجمل لحظاتي..

أنت مسوّدتي الأولى التي لم أكتب بعدها شيئاً يستحق الذكر.أنت رجل الصفحات البيضاء الفارغة.. أنت الذي يدوّن في المنطقة المحظورة للهوامش الحمراء..

كيف أنسى؟

هل هناك من يخبرني كم من العذاب والألم يحتاجهما رجل أصبح يعيش في صحراء الانتظار تحت شمس الذاكرة، لا يجد حتى ولا شجرة واحدة للنسيان يختبئ في ظلّها؟

هل هناك من يقول لي كيف نغادر سراديب ذاكرة ما مضى من أشياء.. كيف لا نبكي.. كيف نقتل كل من قتلنا ونخلص لكل من أراد لنا الحياة.

كيف نبرمج قلوبنا لترفض كل زائر من الماضي.. كيف لا نشعر بصقيع الحنين ولهيب الاشتياق.

كيف أنسى؟

كيف أنسى أوجع ما علّمتني إياه الحياة، بأنني لن أجد الأمان لا في البشر ولا في الوطن.. وبأن وحده الموت أكثر أماناً.

إذاً.. للماضي عطر آخر.

ها هي الحياة، تدوّخنا وتأخذنا بكلّ ما فيها. نمشي في وديانها، نتسلّق جبالها، ونسبح في بحارها، ولكنّنا نادراً ما نصل إلى سمائها.. إلى خلودها..

نخوض معاركها وحروبها، فإمّا ننتهي مهزومين، وإمّا ننتهي منتصرين.. لكنّنا في كلتا الحالتين ننتهي.

نهرب إلى الكلمات وكأن في الأدب خلاصنا.. ذاك الذي لا يعلّمنا شيئاً، بل فقط،كيف نتحسّر على الأشياء..

ننزف لنعرف أننا ما زلنا أحياء.

يقولون لا تخافوا الوجع، فالخوف من الألم هو الخوف من البقاء. ونحن في صراعنا من أجل البقاء، ننسى كيف نعيش.

«لا تقل بوصف أي امرئ بأنه سعيد إلا بعد أن يموت».

إذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا لا نقرّر كلّنا أن نموت؟

ربّما، أقصد حتماً، لأنّ هناك ما هو أكبر من السعادة في الموت، إنّها السعادة في الحياة.. إنّه الأمل الذي يرغمنا على البقاء، إنّه الشيء الذي نهدف إليه.. إنّه الإنسان الذي نكون من أجله.

نعم...

أنتَ أهم صدفة حدثت.. أو ربما،من أهم الأقدار..

هل كانت صداقتنا صدفةً، أم لعبةً صنعها القدر وكانت من الأشياء التي فشل في تشويهها؟

لا أدري..

سألتكَ في أحد الأيام:

ـ ماذا تقول لو أرفع لك كتاباً؟

ابتسمت عندها وأجبتني:

ـ ولماذا قد تكتب عن رجل مثلي؟.. أو أقصد، لماذا نكتب أصلاً؟

ذهبتُ إلى صمت طويل، قبل أن أجيب:

ـ هناك تيّارات كثيرة تجرفنا إلى الكتابة. أحياناً تكون تيّارات عشقيّة، وأحياناً أخرى قد تكون نزعات حقد. قد يعتبر الكتاب مقبرة ذاكرة، وقد يعتبر كعلامة تحظّر النسيان.. قد نكتب لنتخلّص من أشخاص في ميتة قلميّة، أو نحيي آخرين في خلودٍأدبيّ.

ولذا ربما ولدت الرواية.. من أجل أناس بدأت قصتنا معهم في اللقاء الأول بفعل نظرة، وبعض الافتراضات. وفي لحظة ذهول، اقتربنا منهم بحجة ما دون أن ندري ما إذا كنا نقترب من شيء يحمل على جناحيه سعادتنا، أو إذا كان سيحملنا بجناحيه إلى هلاكنا.

نكتب من أجل أناس شهدنا جريمة قتلهم لنا، أو آخرين كانوا شهداء جريمتنا.

لماذا أكتبك حقاً؟

ألأنني قطعت وعداً ذات مساء.. أم لأنني أريد لك انتقاماً حبرياً؟! أما زلت تذكر صوتي يهمس لك: صديقي.. سأقتلها بالكلمات.

إذاً هذه المرة أيضاً سأكتب. . من أجل النسيان.

اليوم سأكتب عنك للمرة الأولى. . بعد الألف!

سأحاول هذه المرة من جديد. . علّني أجد إذاً ما يستحق الذكر، فقد سئمت من حرق الأوراق، ومن تلك العلامات المحظورة خوفاً.

سأكتبها، علّك أخيراً تقرأ!

سأكتب هذه القصة حسبما أذكرها، أو ربما حسبما لطالما أردت أن أتذكرها.

ولن أنسى تلك التفاصيل الصغيرة، التي لولاها لما أصبحنا كباراً. . تلك الأجمل في مباغتتها من خلف أبواب الأمل.

ولن أنسى جاداً أيضاً. . الذي أتى في اللحظة الأخيرة حاملاً معه حقائب من الخراب والأمل. كرجل يتوجه إلى حيث لا يدري انفجر بعشقها في المنطقة الملغومة لتلك الحواس المكبوتة خوفاً. . وربما أملاً.

سأحولها إلى أبطال حبرية. .

ما دام وحده البطل الحبري، يذهب ويأتي كما تشاء. لأنك أنت موطنه، ولأن كلماتك البيضاء تنزع عنه صقيع الشتاء.

تعرّيه سطراً، وتلتبس به لصفحات. . في الكتابة عشق، لا خوف فيه ولا حياء!

ولكن . .

هل من العدل أن أستعمل الحبر بعد أن كتبتماني بالدموع؟

لا . . أصبحت أملك الذخيرة الكافية من الرجولة كي أكتبكما بالحقد والجنون . . الحبر وهم من ظن نفسه كاتباً، إنه وسام لأدباء مضوا . . فالخونه قد يوقعون اتفاقية بالحبر، وقلم رصّع بالألماس . . ما عاد هذا زمن يمَجّد فيه الحبر الأزرق . . لا .

هل ظننت يوماً بأنني سأستعمل الحبر مع أناس قد سبق وكتبوني بالرصاص؟!

بوقاحة كاتب . . سأكتبها .

وسأتحدث عن مرضك، دون شفقة . . ذاك السرّ الكبير .

سأكتبها بتفاصيلها المملة . . قصة اختارها الجنون وقادها العشق . . قصة أبحرت بي إلى حيث الذهول .

«إذا أردت ألا تنسى بعد موتك، إما أن تكتب شيئاً يستحق القراءة، أو تفعل شيئاً يستحق الكتابة .»

إنّه فقط أثر يتركه الرّاحلون . .

وهم . . الذين يرحلون . .

هل تكون الكتابة كافيةً لنبلغهم عن شدة مرضنا بهم؟ وشدة الشقاء الذي أصابنا خلال تحضيرنا لهم خلوداً أدبيّاً؟ هل تكون الكتابة كافيةً لنستعيد حقّنا منهم؟

لا أدري قطعاً ما الكتابة..

لكنني أمضي وأكتب.. دون أن أدري أين سترمي بي هذه الصفحات، وفي أيّ محرقة.. دون أن أدري ما إذا كانت ستجرفني إلى أكثر من كتاب آخر..

أمضي وأكتب..

دون أن أدري إذا كانت كلّ الكتابات قصصاً حقيقيّة،أو إذا كانت فقط خرافات وأحلاماً عاطفيّة..

وما إذا كان ثمة نيرون آخر ينتظرني.. في زمن آخر.. ليحرقني أنا وكتاباتي.. وأبطالي.

أمضي وأكتب..

دون أن أدري إذا أصبحت فقط أكتب.. لأمضي.

وما إذا كانت الحروب الأدبيّة حقّاً خالدةً، على غرار الحروب الأخرى التي ماتت مع أبطالها.

تلك الحروب الأدبيّة التي بها نقتل ونحيي من نشاء.

وحدها الحروب الأدبيّة خالدة.. وحدها الحروب الأدبيّة لا ترحم..

هي الأكثر وجعاً.. لا تغفر.

أمضي وأكتب.. بلا أمل.

لكنني رغم ذلك أمضي وأكتب قصّتي معكما.. قصّتكما.

دمدمات

هناك..

على أرضٍ تعانق بها الجامع والكنيسة.

على أرضٍ عمرت على الحب.. الأحقاد والكراهية.

هناك، حيث علت الجدران ضعيفة، علماً منها بأنّها ستسقط يوماً.

هناك.. حيث مرقد عشتاروت وعشتار، عند مؤلّفات جبران، في معبد بعل. هناك، أقصد هنا، في بلاد لم تعرف السلام والأمان.. في بلاد تخرج من منزلك وقد لا تعود، لأنّك قد تذبح على حاجز، أو قد يتربّص بك رصاص الغدر لأنّك ثائر.

على أرض كادت الصخور فيها تصرخ ألماً.. على أرض كادت يوماً تكون وطناً.

بلاد تعرف المبالغة في كل شيء.. بلاد السيارات الفارهة، بلاد القصور والملاهي الليلية.. بلاد تقدم بها الحلوى والحمضيّات الى جانبها القهوة والشاي في آن معاً.

هناك كان عندما أشعل الحب قلبه بأنامله النارية، ولطّخ

عينيه برماده المبعثر بما فيه من أسرار وعجائب، حتى توصل إلى خفايا قلبه التي ولد من أجلها.

نعم.. ولد ليحب الفتاة التي أخذته بهيبتها إلى ما هو أبعد وأعظم من الأحلام.

هي الفتاة التي جعلته يسجد في محراب الجمال بجمالها، فتاة ترتعب وتخجل منها العروش إذ توّجت عليها.

ذلك اليوم، كان هو فقط شاباً، على أهبة حب.. وكانت هي فتاة، على أهبة سفر..

كان هو شاباً مقيماً هناك، وكانت هي فتاةً تقوم بزيارة سنوية إلى.. «هناك».

هي..

بشعرها الأسود، وفستانها الخمري الذي يلاصق جسدها، زاحفاً على كتفيها من مساحة صغيرة، متّسعاً إلى أخرى أكبر منها، وملتقياً عند صدرها المختبئ بخجل.. ومن ثم، مكملاً طريقه نزولاً، متحرّراً عند ركبتها، تاركاً مسافة، تفصلها شعرة بينه وبين الأرض.

أمّا هو..ها هو..

على بعد من عينيها الحادتين.. يقف مذهولاً.

ها هو..

باتجاه ذلك الوجه الناصع الذي ينبعث النور منه متلألئاً.. يقترب ببطء

ها هو..

من تينك الوجنتين اللّتين يتفجّر فيهما الدم بكبرياء..

يقترب أكثر.

أمام ذلك الجمال الذي يسلب القلوب، ويحني الأقلام، ويحرق الصفحات.. ها هو، يقف مستسلماً لها، وخاضعاً لسلطانها.

ماذا أقول كي أفي جمالها حقّه، والحبر قد أمسى ماءً؟!

ثمة أقلام.. تكتب أبداً عن الجمال.. دون أن تتعب، ودون أن يموت حبرها.. حتى ينتحر الجمال فيها لفرط ما كتبت..

تلك أقلام ضعيفة.

ثمة أقلام أخرى، يتجمَّد الحبر فيها، ويموت رصاصها لمجرّد ما شعرت بأنّها تنزف جمالاً.

لأنّها أقلام خالدة..

يتوقّف الزمان عند قولها:

ـ كيف حالك؟

تنزلق ثانية من الصمت هاربة، يتابع الزمان بها مسيره، ثم يتوقّف مجدّداً عند قوله:

ـ قد كنت بخير، قبل أن يزيدني هذا الثوب الخمري ثملاً.

تضحك:

ـ أعتذر.. ربما كان عليّ أن أرتدي آخر.. بلون القهوة.

ـ لا تعتذري.. عليك فقط تحمّل مسؤولية الذين سيسقطون شاهقين أمامه.

تجيب بكبرياء:

ـ إذا كان الامر يتعلّق بالسقوط.. ليسقطوا.. بماذا يحظى الرجل إذ لم يمضِ الوقت أرضاً؟.. السقوط أجمل تجاربكم.

بثقة:

ـ تقصدين.. أجمل موتاتنا.

ترتشف القليل من تلك الكأس التي عانقتها أصابعها بشراسة، فتنزحف قطرة منها على شفتها، وتبقى معلّقةً بين الموت والحياة.. بين السقوط والـ..

يرفع يده ببطء باتجاه وجهها، فترتبك هي دون أن تدري بالذي يحصل، وفي لحظة حواس صامتة، يلتصق إصبعه بشفتها مقرراً مسح تلك القطرة.

يقتل قطرة العنب على الشفة العنابية.. يقتل الصمت قائلاً:

ـ إنّها فقط.. قطرة على..

ثم يضحك بارتباك قبل أن يضيف:

ـ لقد مات الخمر على شفتيك.

تبتسم بدورها:

ـ دعنا من الموت الآن، لكن عليك أن تعلم أنّ سقوط الرجل هو سرّ رجولته لا أكثر، ولو كان ذلك سقوطاً أمام المرأة نفسها.. ثمّة رجال يدِخلون عقدهم السابع سقوطاً، ليس بالضرورة أمام الرغبة، إنما أمام الحب الذي يتجدّد يومياً بينهم وبين من يحبّون.. أتدري، أمثالهم يموتون في عزّ رجولتهم.

أذهل بذلك التواطؤ الذي لا يقاوم، ولم يدرِ ما يقول لها.. هل يقول: «ما أجمل السقوط عند قدميك سيدتي!».. أو يقول: «هذه اللحظة بالذات ضمنت موتي رجلاً».. أو يكتفي بـ «لن أسقط إلا للمرأة نفسها»؟

قال:

– أتدرين.. من جلس ذات يوم مقابل عينيك، ذهب إلى مثواه الآخير.. رقصاً.

ثم:

– أمام عينيك.. كانت سكرتي الأولى.

بين تلك النظرة وعطرها.. كانت سكرته الأولى.

لم يكن كل ذلك الحديث الذي دار بينهما، وتلك المحاولة لقتل قطرة الخمر، بشيء غريب في كفررمان. قد

يكفي فقط أن تعرف أحداً معرفةً عاديةً لتتكلّم معه بهذه الأشياء. . غير العادية.

إنّه المكان الوحيد الذي تقول فيه كل ما تريد دون أن يطالبك أحد، سوى عيون الرقابة التي لا تبصر النور إلا بغية التجسّس على الآخرين.

كم أشفق على أولئك الذين لا يرون أكثر من بعد أعينهم، ولا يعرفون أكثر مما تودّ أن تقوله ألسنتهم.

ثرثرة هنا. . ثرثرة هناك. . لا يهمّ.

في ذلك الحفل السنوي الذي يجتمع فيه كل أهالي كفررمان إحياءً للعلاقات بينهم. . الذي يجتمعون فيه ليأكلوا ويشربوا. . ليرقصوا. . ويفعلوا ما يشاؤون بعد خنق الأنوار.

في ذلك الحفل. . كان لقاؤهما.

لم يكن ذاك اللقاء الأول. . كان ذلك فقط لقاءً إلى طاولة أخرى. . وعلى كرسي آخر.

في الواقع، التقيا للمرة الأولى منذ زمن، منذ خمس عشرة سنة. . طفلين على الشاطئ.

كان ذلك لقاءً على صعيد الطفولة. . يبنيان قصوراً من الرمال. . يركضان مع باقي الأولاد. . يلعبان ويلهوان في الماء.

اليوم. . إنه لقاء إلى طاولة أخرى للذاكرة. . على كرسي آخر للحب.

بعد شعر أسود وفستان خمري.. بعد سقطة.. بعد موت على شفتيها والقليل من الخمر.. بعد رقصة.. جلسا معاً يسترجعان أيام صداقتهما صيفاً بعد آخر، لكونها لا تأتي إلا بزيارة صيفية.

قالت:

ـ أجمل ذكرياتي تقتصر على المسرح في مهرجانات المنطقة.

ـ لقد بدأنا بالتحضيرات والتمارين. يمكنك أن تنضمي إلينا إذا كان ذلك لا يتضارب مع تاريخ عودتك.. متى ستسافرين؟

ـ لن أسافر مجدّداً.

قبل سقطة ثانية، يعلّق مدهوشاً:

ـ ماذا؟

ـ لن أسافر، لقد قرّر أبي أن أنتقل إلى هنا، فأنا على وشك البدء بسنتي الدراسية الأخيرة، وعليّ أن أخضع لامتحانات رسمية، ويفضّل أن أكمل دراستي الجامعية هنا أيضاً.

لعلّه سعد للخبر كثيراً.. فالأمور ستأخذ مجراها بطريقة أسهل.. لن يزحف الحب الآن في البحر عبر القارات.. سيزحف فقط عبر بضع منازل.. والقليل من الطرقات.

أراد أن يقول لها: «هذه أجمل الأخبار على الإطلاق».

لكنه سألها:

ـ وهل أنت مرتاحة لهذا القرار؟

ـ في الواقع، نعم، فليس أجمل من أن تعيش في منزل تملكه أنت، في وطنك.

جاء منتصف الليل، وعلى سندريلا الآن خلع أحلامها لترحل، أو أقصد، على الأمير خلع أحلامه، ليكتفي بالقليل من خمر شفتيها على إصبعه.

قال لها:

ـ مهى.. أراك غداً؟

أجابت:

ـ نعم.. غداً إذاً.

إنّه منتصف الليل هناك.. أمّا هنا، على هذه الورقة، فهي الرابعة فجراً..

تستيقظ المآذن لترفع الأذان.. وتستيقظ أمي معها، لترفع الصلوات.

تُفاجأ لكونها لم تتوقع وجودي مستيقظاً حتى هذه الساعة من الفجر.

ثم تقول بعينين نصف مغلقتين.. وفم نصف مفتوح:

ـ ما بك يا بنيّ.. أشفق على نفسك.. انظر إلى

عينيك.. إنّها الرابعة فجراً.. لن يهرب الدفتر.. قم واحصل على القليل من النوم.

ليس هناك أبشع من أن تكون كاتباً ورسّاماً وراقصاً، هدر حياته ليخرق القوانين، ويحيا عكس الطبيعة، ويحظى بحياة فنان فوق العادة، لكنك، تعيش في اللحظة نفسها مع أم تظن نفسها طبيباً.. فوق العادة أيضاً. تدخل المنزل لتراها في عالمها الخاص، تقوم بتمارين رياضية روحية ما عادوا يمارسونها الآن إلاّ إحياءً لذكرى أجدادهم في اليابان، أو لتراها في المطبخ تقوم باختراع جديد قرأته للتو في كتاب طب الأعشاب.

لكنني بحق أعترف بفضل هذا الطب، الذي وفّر عليّ الكثير من المتاعب. فتأتي بقارورة قائلة: «جرّب هذا»، ثم تضيف: «هل تظن الأطباء أفضل مني؟».

تصمت هي، متوجّهةً إلى المطبخ لإعداد فنجان قهوة، بينما تعلو الأصوات من المآذن: «الله أكبر، الله أكبر»، ومن الحيّ المقابل مئذنة أخرى: «الله أكبر»، وتلك هنا: «حيّ على الصلاة».

لماذا يبنون أكثر من جامع في منطقة واحدة؟ هل أصبحوا يزايدون بالدين بعدما لم يجدوا شيئاً ليكون موضوعاً للمزايدة، أو أنّ أعداد المؤمنين قد ازدادت ولا تسعهم قاعة

صلاة واحدة؟ أو حسب قول أحد الأصدقاء، فلكل حزب مسجده؟

أم أنّ اللغز يكمن في أنّ الناس أصبحوا بحاجة إلى أن يسمعوا الأذان أكثرمن مرة في اللحظة نفسها، كي يدركوا ويصحوا من نوبات ضمائرهم؟

وهل يصحون يوماً؟

تعود أمي بعد دقائق بصينية يتربع عليها فنجان قهوة، وعلبة من السجائر إلى جانبه.

تقول:

ـ لا أدري في أي مستشفى سأرمي بك بعد سنوات.. لا تسهر يا بنيّ.. السهر يقتلك ببطء.

طبعاً، لن أخوض نقاشاً لن ينتهي قبل بزوغ الشمس.

لا أجادلها.

أغلق الدفتر.. وأذهب.. لأنام.

***

كثيراً ما يأتي الحب بأشيائه، قبل أن يأتي بحواسه.

يحملنا معه إلى أماكن عارية من الكلمات أمام جمال اللحظة وهيبتها.

تُشلّ الحواس لفرط انجذابها، وتهذي القلوب لتقطّع

نظامها، فتنبض على عجل، وتختلط الإيقاعات بفوضى، لتصمت للحظات أخرى.. على عجل أيضاً.

في الحب، لا تتوازن القلوب بنبضاتها.

تضطرب الحواس، فتشتمّ الآذان رائحة أصواتهم، وتلامس العيون رعشة سلطانهم، وترى الشفاه سحر شفاههم، وتنطق الأصابع على منعطفات أجسادهم.

أمام اضطراب الحواس وشللها.. يبدأ الحب.

جاء الغد.. لكنّها لم تأتِ.

توقَّع وجودها في المبنى حيث تقام التمرينات أثناء فترة بعض الظهر.

لكنّها.. لم تأتِ.

جلس في إحدى الغرف، حمل العود بيده، وراح يعزف حبّه الجديد.

أو إذا صحّ القول، حبّه الأول.. الوحيد.

مذهل أنين الموسيقى في جرأته على الصراخ عندما تصمت الشفاه.

مذهل عالم الفن، إذ به يقف أجرأ من مبدعيه. فاللّوحة تنطق أمام خجل رسّامها، والموسيقى تصرخ عن خرس عازفها، والرواية اعترافات مغلقة لقلم كاتبها.

في اليوم التالي استيقظ قرابة الساعة الحادية عشرة قبل

الظهر، لم يكن أي من أهله موجوداً في المنزل. في الواقع لم يهتم للأمر كثيراً، فهو منذ أيام لا يفكر إلّا بمهى، وكان يدري تماماً بأن قدَره قد خطط منذ زمن لهذا اللقاء، وبأن قصته معها، ستكون أجمل الأحداث على الإطلاق. كان متأكداً بأنه سيعشقها من دون تفكير، وبأنه سيكون مستعداً كي يعشق أخرى تشبهها تماماً في زمن ما.

فكرة مجنونة عبرت رأسه، ولم تعطه فرصة التمعن بخطورة عواقبها. اتصل بها، رنّ الهاتف كثيراً قبل أن تجيب، قال:

- هل أزعجتك؟

ضحكت:

- لا أبداً.. كيف حالك؟

- بخير

كان لصوتها ذاك الوقع المميز، الذي لا يمكنك أمامه سوى أن تسترخي وتصمت.. كنسمة هواء ذات ربيع.

قالت:

- إذاً؟!

- إذاً... كنت أفكر.. ما.. ما رأيك أن نذهب لتمضية النهار على الشاطئ؟!

قالها بتردد، وكأنه بعد قليل سيندم.

صمتت هي بعض الشيء، وفكّرت، ثم بتردد أقل:

- الطقس جداً حار.. أعتقد أنها فكرة جميلة.. مرّ بي بعد ساعة تقريباً.

كان في الساحة أمام المنزل قبل ساعة بدقيقة. داخل السيارة، كان مرتدياً شورتاً أبيض، وكنزة زرقاء.. أما هي، فقد ارتدت فستاناً أزرق اجتمعت عند خصره فراشات صغيرة بيضاء، وعلى رأسها قبعة مستديرة بيضاء أيضاً، لتترك خصل شعرها الكستنائية تتمايل من تحتها بإغراء.

كانت جالسة على الرمال الذهبية تحت الشمس الحارة عندما غادر المياه ليجلس إلى جانبها.

- ماذا تقرإين؟

- رواية للكاتب الأميركي "نيكولاس سباركس".. بين الحب والعشق والهوس.

كان يشاهد جنون عينيها، ويسمع عذوبة صوتها. يقول لنفسه بأنه يحبّها.. يعشقها.. وبأنه قريباً، سيصبح مهووساً. استلقى على بعد مسافة قصيرة منها.. مسافة كافية كي يبقيا على بعد شعوراً متضارباً الواحد من الآخر.

استدارت على جنبها حتى أصبحت مقابلة لعينيه، ورفعت يدها كي تثبت خصلة من شعرها جنب رأسها.. قالت:

- آخر مرة رأيتك بها كانت منذ حوالى عشر سنوات.. لنقل إننا لم نلتقِ من قبل، وها نحن نلتقي للمرة الأولى الآن...

ابتسمَت:

- أخبرني عنك أكثر.

الشمس وعينيها.. وكل ذاك الجنون الذهبي؟!

بسرعة مذهلة، أخذ الكاميرا من حقيبته، والتقط لها صورة سريعة.. قال:

- من أين أبدأ؟

- من أهم الأحداث، والمنعطفات.. من الماضي.

صورة ثانية:

- أنا رجل لا ماضي له.

بسخرية:

- بطاقة تعريفك الشخصية إذاً؟!

الثالثة:

- اسمي؟! تعرفينه.. عمري؟! ستعرفينه في وقت لاحق.. ليس هناك من أشياء مميزة أخرى تستحق الذكر.. وإذا كان هذا ما تنتظرينه: فأنا لم أعشق بعد.

تجاهلت اعترافه الأخير.. في الواقع، فهو لا يعنيها.. أو ربما، لا يعنيها الآن على الأقل.

- وأنت؟!

ابتسمت، وبثقة من عرّف عن نفسه بالطريقة نفسها أكثر من ألف مرة حتى إنه حفظ الكلمات عن ظهر قلب، قالت:

- إسمي مهى، عمري ثمانية عشرة سنة، أهوى

الرقص.. قريباً سأتخصص في مجال العلاقات الدولية والعامة.. وفي ما بعد، سأدرس التمثيل والإخراج.. أكره الحيوانات بشكل عام، الهررة كثيراً.. أعيش بمفردي...

عادت إلى الجلوس وقد وضعت يديها خلفها على الرمال كي تتكئ.. ثم وكأنها تفكر إذا كان عليها أن تتابع أو لا، نظرت بعيداً عبر الأفق بصمت، وقالت:

- أعتقد أن هذا كل شيء.

- كل شيء؟ ماذا عن الماضي؟

وكأنها مجدداً تود ألّا تقول شيئاً:

- دعنا من الماضي الآن.

ضحكا معاً، ودّ لو يحضنها بين يديه أمام الناس على الشاطئ، أمام الصخور والأمواج المتراقصة.. تمنى لو يحملها ويركض بها إلى المياه. لو يرفعها عالياً فوقه.. لو يرميها على الأمواج ومن ثم يلتقطها من أجل قبلة.

تمنى لو يقول لها بأنها ماضيه وحاضره وكل ما سيأتي.. وبأنه لم يعشق قبلها ولن يفعل بعدها.

لو..

لو تحضنه إلى قلبها وتضع أصابعها في شعره. لو تضع يدها بيده إلى الأبد.

مشيا معاً على امتداد الشاطئ، أقدامهما تغرق في

الرمال، وبين الحين والآخر، تلامسهما مياه ما تبقى من أمواج. قالت:

- أحب هذا المكان.

- يمكننا أن نأتي غداً لو تشائيين.

كمن تذكر شيئاً:

- كلا.. غداً موعدنا في منزلي، سأحضّر العشاء.. ما رأيك؟

دون رفض.. سأكون في منزلك حتماً.. قال:

- هل لاحظتِ أننا نرتدي الألوان نفسها.. أحب المصادفات كثيراً، حتى السخيفة منها.. أحبّها.

بلغة قاطعة:

- لكنني.. أخشاها.

***

بين الأزرق والأبيض.. بدأت لقاءاتهما.

بين قدر المصادفات، بعد سهرة وشاطئ.. بدأت.

في منزلها.. على بعد أمتار منها جلس يشاهدها تحضّر مائدة العشاء.

وشيء ما ذكّره بأن المرض قد لا يسمح له أن يبقى كثيراً.. فالطبيب منذ أيام شخص تلك الحالة على أنها متقلبة ولا يمكن التوقع منها شيئاً.

تجاهل واقعه المرير..
سيحبها.. لو حتى لأيام.
سيعشقها.. تلك، أجمل الأحلام.
أحبّته، أم لم تفعل.. أمر سيّان، سيمضي يعشقها.. لا يبالي!
- هل أنت جائع؟
جائع إليها هو.. فتقدّم يا زمن واحمل شفتيها إلى شفتيه..
مجنون بها هو.. فارقص يا قدر، وخذهما إلى حيث لا ضوء قمر.
- لا أدري.. مازال الوقت مبكراً.
ابتسمَت:
- إلحق بي.. بسرعة.
خرجت من الغرفة، وصعدت إلى الطابق الأعلى من المنزل، مروراً بتمثال فضيّ.
لحق بها بشيء من الارتباك كرجل ذاهب إلى المجهول..
كان لابد لذلك ألّا يحصل. أن تدخل غرفة نوم أحدهم يعني أنك اجتزت كل المسافات والحدود الفاصلة.. وبأنك مررت على الماضي وجزء من الحاضر وأصبحت المستقبل.
إذاً دخلا غرفة نومها.

كان لا بد ألّا يحصل!

وقفت أمام المرآة وكأنها تريد أن تتأكد إذا مازالت على ذاك القيد من الرغبة والجمال.

التفتت إليه ببطء متعمّد:

- أغمض عينيك.

بدهشة وتساؤل:

- ماذا؟!

ابتسمت:

- أصمت.. واغمض عينيك.

أغمضهما.. وشعر لحظتها بأنه سيزور كل مدن العالم، وسيسكن السماء.. بأنه قد ملك بابل ومدينة الشمس.. وبأن ليس "زوربا" وحده سعيداً..

وقرر، من الآن ولاحقاً سينفذ معها فلسفة زوربا.. سيكلّمها رقصاً!

سيرقص لها.. ويقفز بجنون، ثم يتعثر أرضاً يتمرغ أمامها بشيء من الدهشة، والذهول، وربما الرغبة.. سيقول لها كم يحبّها، كم به من العشق لجسدها، وكم سيشتاقها عندما ترحل.. لو رحلت!

كل هذه الأشياء سيقولها رقصاً.. فهل ثمة تعبيرعن الحب أكثر وجعاً وجنوناً من الرقص؟

تباً.. لقد أصبح زوربياً بها!

من الآن ولاحقاً سيرقص لها.. أو ربما من الغد.

أغمض عينيه على كل التساؤلات.. وانتظر.

كانت اللحظات تمر كأنها سنين.. وكانت الشهوة تقارب مخيلته بسرعة وتهرب بسرعة مختلفة.

كان مازال غارقاً في البعيد عندما قاربته مباغتة من الخلف ووضعت يديها على عينيه، وعلى بعد نفس منه، همست:

- ليس بعد..

قادته ببطء إلى الأمام حتى حافة السرير، رفع قدمه وصعد..

ما زالت مغمضة عينيه ومازال ماشياً إلى المجهول..

أصبحا على السرير.. وقفا على قدميهما.

تركته، وابتعدت عنه قليلاً:

- الآن!!

توقّع كل شيء إلّا هذا..

بعد لحظات من الرؤية المشوشة، خرج نظره إلى الليل الفارغ أمامه.. إلى سماء كانت تشبهه قبل أن تدخل امرأة إلى مدارها في وسط شهر عشقيّ.

مباغتة لكل الحواس أتت.. فلماذا هذا الحماس وذاك الزخم من الحذر إذا كان فقط من أجل مفاجأة كسماء سوداء معلقة إلى شرفة لا جدار لها؟

كانت ما زالت واقفة خلفه عندما خرج إلى الشرفة ليرى ما لم يَنْسَه حتى اليوم.

أن تجلس أرضاً بين القمر والشمس في ليلة بدر في مساء كهذا في حضرة امرأة كهي.. جنون!

أن تفكر هي بمفاجأة من خلف الغلاف الجوي للحواس، حيث تعشق الملائكة بإيمان.. لا أكثر منه جنوناً!

إذا جلست اليوم في ليلة كتلك لأشبّهها بكوكب أو نجمة.. ستكون تلك أصعب الأمور على الإطلاق. هل أشبّهها بشهب لا يمرّ إلا كل قرن مرّة واحدة؟! أم بكوكب لا حياة فيه؟!

لا أدري.. بأي نجمة أشبّهها.. أبتلك التي ينبعث الضوء منها فقط من بعيد؟! قطعاً.

لم تكن نجمة، ولم تكن كوكباً.. كانت المجموعة الشمسية بأكملها!

كانت المجموعة الشمسية في مجرة ما عادت موجودة إلّا في هذا الكتاب.. وكان الرجال يتعثرون بها للحظة، ومن ثم يفكرون كيف سيصلونها لأزمان.. كان الرجال يأتونها كغزاة من مجرّات وشموس أخرى.. يأتونها بمباغتة وإغراء ثورة.

بأسلحة لم يشهدها كوكبنا من قبل، بسهام من شهامة وهيبة، ومعاول من فخر وغرور.

كانوا يخوضون معها حروباً لم يكتبها التاريخ.

ولم يكن لهم أبداً سوى مصير واحد.. السقوط!

منهم من يبقى متعلّقاً بها، ومنهم من يفتش عن الثقوب كي يقفز منها.. خارج الكون.

وضعت قبلة على خدّه:

- هل أعجبك الخسوف؟

انخسفت الحواس عنه بتلك القبلة، وعرف أخيراً بأن الآتي سيكون حتماً.. الأجمل.

- تماماً.. كأنت!

وضع يده على خصرها وشدّها ببطء حتى أصبحت ملاصقة لجسده، قال:

- ما رأيك لو نأتي بالعشاء إلى هذه الشرفة.

لم تجب، مشت أمامه إلى الطابق الأسفل وراحا يحملان الأغراض معاً إلى الأعلى.

لماذا حدثت كل هذه الأشياء.. لم يعد يذكر!

لماذا لم يكن حتى علامة قدرية واحدة كي تحذّره من اقترافه أكبر الحماقات؟

وهي التي أتت لتتحرش وتداعب صدر الحواس، في عتمتها، هل ستتفهم كل شيء دون أن تحقد.. دون أن تنتقم؟!

كان في عينيها العسليّتين وعد سرّي، وغامض.. وعد لم يكتب على صفحات.. كان فيهما شيء يدعو للخراب، وبأن الفاجعة حتماً ستأتي.. بعدهما.

في المساء التالي، التقيا في منزل أحد الأصدقاء.

ـ ظننتكِ ستأتيناليوم من أجل التمارين.

تجيب:

ـ يا إلهي.. لقد نسيت.

قال مازحاً:

ـ عليكِ أن تعطيني درساً في النسيان، قد أحتاجه في وقت لاحق.

ـ النسيان لا يعطى درساً، إنّه الشيء الوحيد الذي يتحكّم به الوقت، وبعض من الذاكرة التي سبقته.

قال كمن يريد أن يضيف شيئاً يبرز تأثيره ووقعه القوي في الكلام:

ـ وهل الذاكرة تتحكم بالوقت أيضاً؟

توقّع أن تقول له إنّ الوقت يتحكّم بكلّ شيء، أو إنّ كلّ شيء يتحكّم بالوقت.. لكنّها قالت:

ـ الذاكرة لا تتحكّم بالوقت، لكنّها تطيله فقط.

كانت تقفز بتعليقاتها من جملة إلى أخرى، كحصان يقفز بشيء من المنطق، فوق حواجز اللاّمنطق.

كيف يقول لها.. إنّها لم تفارق أحلامه منذ سنة؟ وإنّه لم يعد يحتمل ألم الحرمان؟

كيف يقول لها إنّها هزّت كيانه كلّه منذ فترة، والآن عقله؟

كيف يقول لها إنّ ذلك الفستان تلك السهرة، وذلك الجمال الخلاب، وتينك العينين الحالمتين، قد جرفت أحاسيسه من عمر حبه.. إلى عمر عشقه؟

هي..

امرأة الشمس الذهبية.. وامرأة المرّيخ الأحمر.

هي..

امرأة الليل.. والبدر الأبيض.

هي صاحبة القلب.. الذي غداً سيثور ويثأر..

كم من الوقت قبل السقوط كان يلزمه ليعرف ما هي..

تلك البركان في صمته.. ولحظة جنونه.

تلك الموجة في مدّ الحواس.. وجزرها.

سيدة المطر والحرائق.

كيف كان ليعيش بغياب عناصر الحياة هذه؟.. وكيف كان ليعيش في حضرة جنونها؟

خرج إلى الحديقة ليجلس إلى جانبها على إحدى الصخور.

كانت السماء صافيةً، رصّعتها النجوم بألوانها الذهبيّة، وكان البدر قد أضفى وشاحه على مداخل البيوت.

قال كأنّه يكمل حديثاً لم يبدأ:

ـ أتدرين أنّ الصمت يقتل أحياناً.

راحت تتأمّله.. إغراء عينيه، رجولته المكابرة، شفتيه المختبئتين تحت شرشف الكلمات، تضاريس عنقه السادية.

ماذا يختبئ خلف قناع هذا الرجل.. فلسفته؟ متى تفهمها؟.. وتلك المواضيع التي تثب فجأةً بفوضوية من خلف لا شيء.

«أتدرين أنّ الصمت يقتل أحياناً».

كيف تجيب عن سؤال.. ليس بسؤال.

تقول بذكاء:

ـ لا تصمت إذاً.

لا أدري إذا كانت على ذلك الجانب الآخر من الصخرة تخضع للأحوال العاطفيّة نفسها.

يفرغ سلاحه الأوّل:

ـ لا أدري بأيّ لسان أبدأ معك الحديث.

ثم يفكر.. المرض.. ماذا يقول لو اكتشفت بأنه مريض، وبأنه في أي لحظة قد يموت.

يتكبّر.. ينسى.. لقد مات بها.. ما عاد المرض يعنيه!

يقتربان إلى خطّ الوسط.. لا يفصل بينهما سوى شريط أحمر للرغبة.

رصاصة أخيرة وتنتهي الحرب:

- في عينيك دخان عصور غابرة لم يكتبها التاريخ، وفي شفتيك اشتعال ملتهب لم يشهده نيرون روما. لم أقابل قبلك امرأة تُعشق.. بسرعة الرصاص!

يضيف:

ـ أحبّكِ.

تصمت دون حركة، وتموت أنفاسها ببطء على أرض المعركة.

تمرّ دقائق من الحذر، ودقائق أخرى من خنق الأحرف على شاطئ الكلمات.

ثم تزحف يدها متسللةً باتجاه يده.. الإصبع الأولى.. ثم الثانية.. ثم الثالثة.. ثم بعد أربع أصابع، تهمس:

ـ لتبدأ حرب الحب إذاً.

في الواقع، أرادت أن تقول: «ليبدأ الحلم إذاً».

فهل تكون الأحلام حروباً أيضاً، نخوضها مع جيوش القدر، وننازع أعماراً من أعمارنا كي نربحها؟

قال:

ـ هل أصبح هذا الحلم حقيقة؟

أجابته كمعلمة وضعت منهج الصف جانباً، وراحت تحدّث تلاميذها عن منطق الحياة:

ـ عندما تحلم، عليك ألاّ تفكّر في الحقيقة، لأنّها دوماً

تعاقبك على أحلامك. .عندما تحلم عليك ألاّ تستيقظ، لأنّك بعد لحظة يقظة، لن تتمكّن من مواصلة ذلك الحلم من جديد. ذلك أنّ في الأحلام أنانيةً كبيرةً لا تضاهيها أنانية.

ذهل بتفسيرها، وراح يستمع إليها كطفل حضانة أثارته معلّمته بأغنية وهي ترتدي الألوان البرّاقة. لكنّها هنا ارتدت الكلام فقط، وأثارته بانسياب الأحرف من فمها بشيء يتحدى الحبّ نفسه. . كما أنها أثارته بذلك الجمال الذي لا يقاوم.

أضافت:

ـ لذا أنا أخاف أن أحلم، قد وصلنا إلى زمن تكلّفنا فيه «الحقيقة» أشياء كثيرة، فهل هناك متّسع من الوقت ومتّسع من الألم لندفع نفقات «أحلام»؟

قال:

ـ ما الحب. . إذا لم يكن حلماً؟

- الحب فنّ، لا يتقن بريشة ولا بلوحة راقصة أو قلم. وحده الحبّ يتقن بأدوات اللهفة والوفاء.

لعلّه سعد بذلك التفسير قبل أن تضيف:

ـ والحرمان أحياناً.

ارتبك في لحظة صمت، ثم قال:

ـ ولكن الفنّ لا يولد إلا من رحم أحلام.

حشرها في ذلك الاستنتاج. فلم تملك سوى:

ـ ربما.

ـ أوتعتقدين أنه قد فات الأوان على حلمي الآن؟

أجابت:

ـ أنت لا تعيش حلماً.. بل إنّك على باب حلم، فقط.. ما دمت مصرّاً على أن تحلم.. احلم إذاً.. ولكن، احرص على ألا تستيقظ.

أضافت:

ـ كيف اكتشفتَ حبّاً بسرعة يوم واحد؟

ـ بل بسرعة عمر، وبضع ساعات.. منذ عمر الشواطئ.

ثم بصوت بغداديّ:

- لقد أحببتك منذ ألف ليلة، قبل الليلة الأولى.

ـ لماذا اليوم إذاً؟

ـ لأنّنا اليوم فقط أصبحنا رجل حب وامرأة حب.

في الواقع كان ذلك رجل حب.. وامرأة حرمان.

تابع:

ـ هناك فرق بين حبّ الصغار وحبّ الكبار.. فالطفل يحب الطفلة التي تشاركه اللهو، ويكرهها عندما تخرّب دميته.. بينما الرجل يحبّ المرأة التي تشاركه كلّ شيء، ويكرهها عندما تلهو به.

كان عليه أن يقول إنّ هناك فرقاً بين الحبّ الصغير،

والحبّ الكبير.. فالحبّ لا يقاس بعمر أبطاله.. إنما بالعمر الذي أنفقوه كي يجعلوه الحبّ الأجمل.

تعلّق:

ـ لكن الشاعر نزار قبّاني قال لتلميذته في قصيدته: «إنّ الرجال جميعهم أطفال».

يصحّح فكرته:

ـ لم تفهمي حتماً ما أعنيه. هناك فرق بين أطفال الحب، وحبّ الأطفال.. نحن من أنصار الحزب الأوّل.. أما حبّ الأطفال، فهو حب محدود. لكن، رغم ذلك، لا يمكننا إنكاره.

ثم يواصل:

ـ أتدرين.. أنا أخطّئ نزاراً في أحد الأبيات الشعرية الأولى من هذه القصيدة.

ـ لماذا؟

ـ لأنه قال: «ما زلت في فنّ المحبة طفلةً بيني وبينك أبحر وجبال».

ـ ثم؟

ـ ثم لا شيء.. كان عليه أن يقول: «ما زلنا أطفالاً، بيننا وبين فنّ الحبّ أبحر وجبال».

تصمت أمام فلسفته الفوق منطقية.

ثم بلهفة وخجل من يريد التأكّد من شيء، وقد سئم من هذه الحروب الكلاميّة، هادفاً إلى كلمة واحدة تتكون من أربعة أحرف، قال:

ـ هل اليوم ولد حبنا إذاً؟

وإذ بها تجرفه إلى غموض وارتباك أكبر:

ـ لم يولد قط، إنه جنين حبّ.. وأمامه تسعة أشهر كي يأخذ حقّه بالولادة.

بمرارة ونبرة عالية:

ـ ماذا؟ تسعة أشهر؟!

تترك صخرة المعركة لتتوغّل في الحديقة، فلا يملك إلا أن يلحق بها.. بسلاح من الكلمات.

تقول له:

ـ أشهر الحب لا تقاس بالساعات، قد يولد حبّ بغفوة زمن، وقد تمرّ أزمان.. دون أن يولد.

يحاول أن يقول شيئاً، لكنّه يجد سلاحه فارغاً.

فتستغلّ الفرصة لتنتهي من المعركة، قائلةً:

ـ سأمنحك وأمنح نفسي الفرصة، علّنا خلقنا لنكون معاً.

... تنفّس الصعداء.

***

كانت تتبرّج كي تكلّمه بالتلفون، شغفها أن تبقى على قدْرٍ كبير من الجمال.. في الواقع فهي تدري أن لرَجلها حاسة صوتية، تخطت نظرات جميع الرجال.

أيقظته قائلة:

- صباحك يا رجل... كيف أنت؟

هو ليس بخير حتماً.. لكنه على أمل أن يصبح كذلك قريباً حسب قول الطبيب في الواقع.. فهذا الدواء قد يحدث شيئاً من التحسّن.

- بخير حبيبتي...

تقاطعه:

- ما مشاريعك لليوم؟

- لا مشروع لي سواك!

تقول بفخر:

- إنه يوم المرأة العالمي.. اليوم سأصادر حقك كرجل.. أنا التي سأختار أين نلتقي وماذا نفعل.. وأنت، تنفذ فقط.. لقد أعطيتك الحكم على مدار السنة، فمن حقي إذاً أن أحكمك لساعات.. أليس هذا اتفاقاً عادلاً؟

أجابها بعد ابتسامة:

- إفعلي ما تريدين.. ولا تعدلي.. فأنا اليوم لك، شرط أن تعشقيني.. بشيء من الرجولة!

سمع نفساً عميقاً.. ولم يسمع صوتها حتى الصباح التالي.

بأيام مرضه بها، التقيا يومياً خلال التحضيرات لمهرجانات المنطقة في سبتمبر 2004.

لم تكن تلك مهرجانات صيف باريس، أو كرنافال في أحياء البندقية.

كانت مهرجانات كفرمان بسيطة.. كحبّها!

لم تكن تلك الأرض تزرع لتحصد.. كلا..

مشاهدة الحصاد وحده.. كانت متعتها!

يومياً..

كان جميع القيمين يقومون بأعمالهم الخاصة، فمنهم من يقوم ببناء المسرح، والبعض الآخر يُصمِّم الديكور، وفي الغرف والقاعات، قامت التمرينات من تمثيلٍ وأعمالٍ مسرحية ولوحاتٍ فنّية راقصة.

تقف أمامه بذلك الثوب.. تتمايل ببطء كسول كحبّها، ترفع يدها عالياً، من ثم بإغراء بطيء أيضاً، تزحف يدها بمحاذاة جسدها، الذي يتماوج كجسد أفعى إفريقيّة.

على كل رجل، قبل أن يعلّم امرأته على مبادئ عشقه،

أن يعلّمها الرقص أولاً.. فامرأة لا تعرف خطوات مرقص، لن تعرف أبداً.. قوانين الجنون!

كان يومياً في مقهى ثمة عازف..

ثمة هو ينتظر هي..

هي إفريقيّة القلب..

هي راقصة تأتي لتتمايل على وقع أنغامه، ترقص عارية القدمين على أوتار ضلوعه.. يحتسيان الاستماع ويرتشفان العزف.

«الحب هو نغم إيقاع يجمع بين عشقين، عشق التلذّذ بالاستماع، وعشق التلذّذ بالعزف، ولكن يجب أن لا يطول التلذذ كي لا يفقد الحب معناه..».

فاعشقوا وتلذّذوا... ولكن!...احذروا...

راح ذلك الانجذاب يجرفهما يوماً بعد آخر إلى أماكن لا يبرّرها الحب نفسه. لم تعد تسعهما قاعات التمارين، ولم تعد تسعهما المقاهي، ولا حتى منازل الأصدقاء.

قال لها بصوت منخفض:

ـ إذاً، أراكِ مساءً.. أقصد في الغد.

ضحكت:

ـ نعم، غداً.

أضافت هامسةً:

ـ أقصد الليلة.

إنّها الواحدة ليلاً.. أي الغد! بعد أن تقفل الأبواب، تصبح الشبابيك والشرفات محطات العبور.. تسلّقت سور المنزل.. من الحقل مروراً بالبستان، هرعت بين الصخور.. وصلت.

ـ أين كنتِ؟ ظننتك رحلتِ.

مبتسمةً:

ـ كيف أرحل؟ وإلى أين؟

ـ لا أعلم، ربما على فرس أو على أجنحة.

أجابته بلهفة وهي ما زالت تختطف أنفاسها:

ـ كيف أرحل على فرس دون فارس، أو على أجنحة دون طائر؟

دون أن يجيب.. سألها:

ـ ماذا تفعلين لو رحلتُ عنك؟

بشراسة لبوة صامتة:

ـ سأقتلك.

حرف بعد آخر، قتلته تلك الكلمة. فابتسم قائلاً:

ـ لا تتأخّري مجدّداً.

ـ وهل سيكون هناك مرة قادمة؟

نظر باتجاه القمر:

ـ ربما، ولكننا سنلتقي مع كل ليلة بدر.. عاهديني بأنك كلّما نظرتِ إليه يكتمل، لن تذكري غيري.

ـ أنا لم أعطِ الوعود يوماً، لكنني كثيراً ما أنفّذها..

– I love you.. je t'aime

ثم بتردد وابتسامة:

– أتدرين؟! أحبّك.. هكذا أفضل!

– وهل ثمة فرق؟!

– عندما أقول حبيبتي بالإنكليزية، فأنا في الواقع أقول «ستكونين في مضجعي هذا المساء» أما المعنى الفرنسي فهو أكثر شاعرية ورومنسية. لكنه وحده المعنى العربي يحمل ثقل السنين ويرتدي الحرمان والذاكرة فخراً ووجعاً.. حبيبتي بالعربية تعني بأنني جعلتك وطني واستبدلتك بأمي.. وبأنك كل ما في تاريخي وما قد يصبح مستقبلي.. وبأنك التي لن تأتي بعدها حقيقة، بل مجرد.. أوهام!

أسدلت شعرها وأغمضت عينيها.. فابتسم تجاه شفتيها كطريدة يمتعها الرصاص، فالسقوط أمام أمثالها فيه شيء من رجل كوبي.. هي الآية التي لم تنزل بحرّاء، فأتت اليوم متأخرة بعض الشيء لتقول له بأن الأبدية للجمال وحده.

– ماذا فعلتَ بالانتظار؟

ـ بنيت لنا قصراً.

تلفّتت محدّقةً:

ـ لكنّني لا أرى سوى أشجار؟!

بخيبة:

ـ أعلم.. إنّها الريح.. دائماً تدمّر القصور، تدمّر الأحلام.

علّقت متسرعةً:

ـ وهل تأتي الريح يوماً؟؟

ـ لا أعلم، أجمل الأشياء وأقبحها تأتي عندما لا ننتظرها.. قد نكون في مهبّ الريح.

هبّت ريح عاصفة، واشتدّ صفيرها بين الأشجار، واخذت تمطر بغزارة.. خلع قميصه ليحمي رأسها من الأمطار، أصبح نصف عارٍ.. ملاصقاً جسده بجسدها متكئين على إحدى الأشجار؛ أنفه يعانق أنفها، نظراته تخنق نظراتها، أنفاسه تطعم أنفاسها. كاد يقبّلها، إلاّ أنه ابتعد عنها بغرابة.

كان من خلال مراقبته لعينيها، ومراقبتها لشفتيه يدري بأن قبلة هي كل ما تريد.. وكان يدري بأنه بقبلة فقط يستطيع أن يبقيها أكثر.. فاقترب مجدداً، ومرّ بمحاذاة شفتيها قائلاً:

- نلتقي غداً...

لا يملك الحب رونقاً إلا إذا كان خلسةً.. خلسةً بضيافة الليل، بين الأشجار، على صخرة الرعشة.

جاء صوته في اليوم التالي متقطّعاً عبر الهاتف، وكأنّه لم يكلّمها منذ أيام،وكانت هي قد استيقظت منذ وقت، أو لعلّها لم تنم.

قال:

ـ صباحك سيّدتي.

ـ هدّئ من روعك.. أنا لست سيدة ولا من سلالة السيّاد.

كان في صوتها شيء يغري بحبّ صباحي.

قال:

ـ هل تعلمين أنّ وجودك في حياتي، احتقار للزمان، وإهانة لقانونه؟!

ـ لماذا؟

ـ لأنّني عندما أكون بعيداً عنك، تمرّ الدقائق ببطء واستفزاز كأنّها سنين.. أمّا عندما تكونين بجانبي، فيهرب الوقت بجنون، حتى تصبح السنة.. ثانيةً واحدة.

باستفزاز:

ـ إذاً، أمامك أقلّ من دقيقة قبل أن تموت.

ـ لِنَقُل إنّ هذا صحيح.. هل ستبقين معي لدقيقة من عمر الحب؟

ـ لا أدري، فالقدر وحده يتحكّم بعمر الحب. هو يقوم بالإخراج، أمّا نحن.. فننفّذ فقط.

كسر السيناريو قائلاً:

ـ ما رأيك في فنجان قهوة في ذلك المقهى؟

قالت:

ـ في الواقع.. لا أعتقد أنّه بإمكاننا أن نلتقي الآن، هنالك أعمال يجب أن أنهيها. ولا تنسَ، علينا أن نكثّف التمارين قبل موعد المهرجان.

كاد يقول لها: «دعي المهرجانات جانباً حبيبتي، وحده الحب يحتاج إلى التكثيف».

لكنّه اكتفى بالقول:

ـ كيف كانت ليلتك؟

ـ ماطرة، وفيها الكثير من الريح.

مرّ صوتها عبر الهاتف ببطء وكأنّها لم تنطق حقّاً، فاستفزّت المطر، وراحت تمطر من جديد.

أين تعلّمت السحر إذاً؟

أنّى لها هذه القدرة الخارقة التي تستفزّ القوانين الطبيعيّة بسهولة؟

الذين قالوا إنّ المطر والنار لا يلتقيان، وإنّ على أحدهما أن يلغي الآخر.. مساكين.

أمطرت بغزارة، وراح الحديث يشتعل باستتار.

قال:

ـ بالمناسبة، لقد اتصلت لأبلغك أن حلماً راودني هذه الليلة.

ـ يا إلهي منك ومن أحلامك.. ستستيقظ يوماً على فاجعة لا مثيل لها.. قل لي، ما هو؟

ضحك ثم أجاب:

ـ لا أظنني أستطيع أن أقول لك.

استفزّتها إجابته، قالت:

ـ أهذا إغراء أمّ لطفلها وهي تحمل علبةً ملوّنةً ولا تريد أن تقول له ما في داخلها؟

ـ ولماذا قد تعذّب الأم طفلها بالمراوغة؟

ـ إنّها سادية الأمومة.. كما سادية الحب.

أدهشته بهذا المنطق.. قال بعد القليل من الصمت:

ـ لن أكون سادياً إذاً.. لقد حلمت بأنني أقبّلك.

صمتت. وراحت تفكّر، منذ ساعات، فصلت نسمة هواء بين شفتيه وقبلة.. لكنّه لم يفعل.. والآن ها هو، عبر هذا الهاتف، يطلب قبلةً بخجل.

ثم أضاف بفضول رجل:

ـ لكن ذلك يعود إليَّ إذا كنت سأقبّلك حقاً.. أو لا.

تراه لم يدر أنّ حديثه سيجرفه يوماً إلى ذاكرة لا رحمة لها..

أجابته بذلك الإغراء المشتعل نفسه:

ـ لا أدري.. ربما.. ربما غداً.. أو في زمن آخر.

هل القبلة أيضاً تستحقّ انتظار زمن؟.. تلك التي تلغي أزماناً.. وتخلق أخرى.. هل تستحقّ هذا القدْر من الانتظار؟

قال بغموض من خضع لتحدٍّ:

ـ تقصدين.. في حلم آخر.

ثم أضاف بكبرياء رجل:

ـ ما دمت قد حصلت عليها في حلم، لا أريدها حقيقةً إذاً.. سأكتفي بكِ حلماً.. أتدرين أنّ أجمل الأشياء هي التي لا تحصل.

قالت:

ـ هل هناك ذاكرة لما لم يحصل؟

استوقفه هذا السؤال يومها.. كما أنّه يستوقفني اليوم بالطريقة نفسها.

هل ثمة ذاكرة لما لم يحصل؟

لست أعلم. . أدري فقط. . أنّ أجمل صداقة. . كانت. . احتمال حقيقة.

وبذاكرة إلى الوراء، يحدث أن أعيد قولي له: «وحدها الأحلام لا تتحقّق».

جاء موعد المهرجان.

مرّ شهر من التحضيرات المكثّفة. . والحب الكثيف.

شهر حبّ. . شهر حلم. . بكلّ ما للكلمة من معنى.

شهر من اللقاءات والمكالمات الهاتفيّة. . شهر من الحروب الكلاميّة المذهلة، والتواطؤ اللاّمنطقي.

شهر دون قبلة.

فقط قبلات بين إصبع وأخرى. . بين يد وأخرى. . بين الحين والآخر.

لعلّها الأصابع هي الأعضاء الأولى التى تتعرّف إلى من نحب بعد عيوننا. . تكتشفهم بلمساتها وتترك عليهم بصماتها.

ولعلّ القدَر الغريب شاء أن يكون ذلك اليوم، يوماً تاريخيّاً، فصادف مرور الفاجعة مع بهجة المهرجانات.

ـ إنّه السابع عشر من الشهر، أتعرفون ما يعني هذا التاريخ؟ بعد ساعات ستبدأ الحشود بالوصول. وأنتم؟ ها أنتم لا تشعرون بشيء من المسؤولية. ما زال لدينا لوحة

راقصة لم ننته منها. هيا اصعدوا جميعاً إلى المسرح، لننتهِ من كل شيء.

دوّى صراخ المدرِّب في أرجاء صالة الاستعراض.

عندها سكت الجميع، وتوجّهوا نحو المسرح. إنّها مسؤوليّة كبيرة، وعليهم أن ينجزوا العمل قبل فوات الأوان.

كانت الصالة عبارةً عن مدرّجات تحتوي على حوالى ألف ومئتي كرسي حمراء، ارتفعت جدرانها السوداء عاتية، ورصّعت سقفها الأضواء كأنها نجوم في ليلة صيفيّة. أمّا المسرح، فكانت مساحته كبيرةً جداً، يتخلّله ديكور فخم يمثِّل مجسّمات تراثيّة ضخمة.

انتهى الجميع من التمرين، وحان وقت أخذ قسط من الراحة.

لكن من يتوقّع خبراً كهذا؟.. كيف لشاب عاش أجمل أيام حياته على مركب الحب الذي يرعّش الحياة ويبعثر اللحظات، أن يقول كل هذا الكلام؟

دون أي سقطات مشاعر، وأيّ اضطرابات عاطفيّة، قال لها:

ـ أتدرين أنّ الحب يصل إلى قمّته في لحظة لهفة جارفة؟!

لم تفهم ما عناه حقيقةً، فاكتفت بكلمة:

ـ إذاً؟

ـ وراء كلّ قمة يختبئ انحدار سريع.

قالت وهي تحاول أن تجعله يدرك خطأه:

ـ الحب لا يقاس بقممه وأوديته.. إنّه طريق أبديّة تتخلّلها منعطفات خطرة أحياناً، وبعض الانحدارات التي تليها ارتفاعات.. وارتفاعات أخرى تليها انحدارات.

راح يستمع إليها بإعجاب.

ثم أضافت:

ـ في الحب، عليك أن تحذر من المنعطفات الخطرة فقط.. وقطّاع الطرق ربما.

جميلة كانت تلك المفردات، بقدر غرابتها.

ثم ذات صدمة، بعد حديث دام ساعة تقريباً، قال بمزيج من الخوف والخيبة:

- في الحقيقة، أعتقد أنّ علينا أن لا نلتقي مجدّداً.. علينا أن نضع نهايةً لقصّتنا، هنا، على هذا المقعد.

ثم بعد القليل من الصمت، أضاف بلغة قاطعة:

ـ مهى.. يجب أن ينتهي كل ما بيننا.

منذ البدء، كانت على يقين بأنه رجل اللغة القاطعة..
فأسلوبه لا يحتمل كلمات المواساة أو الفواصل التي يليها تبريرات.. كلا، هو صاحب المفاعيل المطلقة والنقاط الخاتمة.

فقد علّمها: كما أن الإنسان ابن بيئته، فالرجل.. ابن لغته!

وهي المرأة الأكثر كبرياءً وتكبّراً من أن تستفسر!

هل تنتظر منه بعض الكلمات الإضافية كي تتأكد من كل شيء؟!

من الواضح أن هذا ليس وقتاً للتساؤل والاستجواب..

لا.. لا أسباب ولا تبريرات تعنيها.. ولا تريد أن تتحداه بالكلمات، ذاك الذي يتقن الحروب والمبارزات دون جهد.. كيف تنتصر؟

تكون قد خسرت شيئاً، لكنها بالزمن الذي سيأتي ستشاهده يخسر كل شيء!

أمام صدمتها واكثر الاحتمالات استحالة، تقول وسط دموعها:

ـ وداعاً.

خرجت من القاعة،وتوجهت إلى غرفة الأزياء لتحضّر نفسها للاستعراض.

***

كان يستعد مسبقاً كي يواجه الخراب ويهيئ حالته النفسية عندما توضب متاعها للرحيل.. كان على يقين بأنها ستشفّر أرقام قلبه السرية، وبأن سريره سيصبح بعدها منطقة محظورة، ملغومة برائحة عشق قديم ولن تصمد أمامه أي جديدة.. هي الامرأة الحدث الذي أدوى الفضاء، هي الخبر الذي هزّ الكون في جريدته ذات صباح.. تصدرت عناوين قلبه دون أن تدخل الأرشيف، كيف لا يقتنع بأنها الظاهرة الغريبة التي لن تتكرر، وإذا فعلت، لن يكون أكثر منها.. بمخيف!

لا تنسَ أيّها الإنسان، أنّ على الأرض ثعباناً يمتصّ دماءنا ويقتلع جذور سعادتنا.. قدراً يدفن ذاتنا في ضلوع الزمن المتكسّرة، يرسلنا إلى أفق مجهول، ويذوّبنا في كأس الأمس الصّافية.. قدراً يبعثر أحلامنا ويرمينا على شواطئ الأيام تحت رعد سحابات خرساء، لنترصّد الأوجاع ونتخبّط في مستنقعات الكون، لنترامى بين حباب البحار الثائرة.

للقدر أيد خدّاعة الملامس، تقبض على القلوب، ترسلها إلى الخلود، إلى قمم السعادة، ومن ثم تصفعها لتترامى بين وديان الألم والعذاب.

ها هو قد حطّم الصورة التي بدأ الشاب رسمها بأنامله السحرية.. الصورة التي وصل إلى طور تلوينها قبل أن يندلق الماء عليها مشوهاً حقيقة معانيها.

انقضت السعادة مع انقضاء الصيف.. انقضت الأحلام مع هجرة الطيور، وجاء تشرين حاملاً معه أوراقه الصفراء، تاركاً أغصان أشجاره عارية، عارية من الحياة ورونق الجمال.. كئيبة وسط الأنوار الباهتة، منطفئة كشمعة أرادتها الرياح..

قبل أن يشفى منها تخلّى عنها.. قبل أن يبدأ بشفتيها قرر الصوم.. عندما بدأت حياته قرر الموت.

طبعاً، هي لم تكن في لحظة حبّ صاعقة ليلة قرر أن ينتهي كل شيء بينهما.. كانت فقط على مشارف صاعقة، أو على نافذة حبّ ربما.

أو ربما..

ذلك الكبرياء الأنثوي الذي لا يتقبّل هجر رجل قد جعلها تبكي ذلك المساء.

كان عليه أن يدري منذ البدء بأن ثمة لانهاية سعيدة، بل أشخاص كادوا أن يكونوا سعداء لو لم ينتهوا.. كان عليه أن يدري بأن روميو لم يقتله سوى ذلك الشغف الأعمى، وبأن كليوبترا لم تمت لو لم تكن صحراوية العشق.. وأن فان غوخ لم يقطع أذنيه جنوناً، بل لأنه أحب امرأة إلى حدّ الجنون.

كان عليه أن يدري بأن السعادة ليست سوى قنبلة موقوته

تغشّ العاشقين، تلمع كشرارة هاربة من المريخ، وبأنه ليس سوى رجل سيدخل من خلالها إلى التاريخ.

كان عليه أن يدري أشياء كثيرة.

هي التي قالت وداعاً.. هل ستعود يوماً؟

صمتاً تعود مهى على صفحاتي هذا المساء..

وذاك الذي ذهب، ألن يأتي مجدداً ليعشقها بجنون..

لا أدري..

ولماذا يعنيني أمرهما بالذات، ويدفعني كي أواصل الكتابة؟! أيمكن حقاً؟!

أيضاً.. لا أدري.

كنت عند كل منعطف أمر به، أترك شمعة مضاءة في كل تلك القلوب البائسة.. شمعة يظل نورها مشعاً أبداً، حتى بعد رحيلي عنهم.. شمعة تعطيني زخماً من السعادة والقليل من الغرور.

لكنني عبثاً كنت أتجاهل تلك النيران التي يشعلونها داخلي مقابل كل شمعة.. لأفاجأ بعد رحيلي، تحت شرشف المباغتة.. كم كنت مليئاً بهم!

إذاً افترقا..

اشتعلت النيران..

وانتقل من سنّ حبّه، ليدخل عمر صمته.

تلك المرحلة من الحب.. التي تأتي.. بعد الحبّ.

راح يعيش حبّاً في سنّه الثانية.. بآمال ملتهبة، وصمت مبعثر.

إذاً افترقا..

وتلك اللحظة التي صمتت بها مهى، وخانتها الكلمات وداعاً.. كانت اللحظة التي خسر بها كل شيء، حتى أنفاسه، ليكمل حياته.. شهيقاً!

إذاً افترقا..

أليس هو الذي قال: «يجب أن ينتهي كل ما بيننا»؟

في الواقع، لم تكن هذه نهاية قصّته معها..

كانت فقط.. البداية!

آهات

هكذا نرحل دوماً.. باكراً.

نحضّر حقائبنا.. نحملها ونمشي، دون أن ندري أننا نسينا هناك ما هو الأهم.. قلوبنا.

نغلق على ذاكرة في غرفة الماضي، دون أن ندري أنّنا أغلقنا على أنفسنا معها.

نستعدُّ للسفر.. على لائحة الانتظار.

نحمل أحلامنا، عقائدنا، قضايانا على أكتافنا.

ونبقى.. منتظرين.

لشدّة عذابنا، يلد الفن مجنوناً، ونقتنع أنّ الفن هو ملجأنا الأخير.. نعزف، نرقص، نكتب بآمال كبيرة.. نطوي على ذاكرتنا داخل كتاب، دون أن ندري هذه المرة أنّنا طويناها على أنفسنا أيضاً. نكتب بسعادة خياليّة، بينما يفترس أحشاءنا حزن غامض.

«الكتابة وهمنا الكبير أنّ الآخرين لن ينسونا».

ما أجملها أوهامي إذاً.. وما أوجعها أيضاً!

أدركت في وقت لاحق، أنّ الكاتب هو كائن غريب،

أرغمه القدر ويده المشاغبة،على أن يعيش أكثر من حياة..
في كلّ منها، ينزف عن أناس مرّوا عليه في أحد الأيام..
يذكرهم.. يحبّهم من جديد.. ينتقم لهم.. منهم.

مرّوا عليه، ولسخاء ضمير قلمه، لم يترك لمرورهم مرور الكرام، إنّما أكرمهم في كتاب، وراح يرثيهم في صفحات.

الحبر.. هو مثوى الكاتب الأخير.

***

عشرة أشهر من صمت العودة، وكلّ ذاك الهدوء العاطفي، وتلك المشاعر البعيدة عن الروح، عند نوم الحواس. بل فقط رغبات جسديّة، التي يسبقها شيء من الحماس والبهجة، ويلحقها صمت الفحولة والضجر، بعد متعة ونشوة دامت ساعات. رغبات جسديّة، يكون أبطالها نساء مزيّفات، لسن أولئك اللائي أحببنا، بل أولئك اللائي بهنَّ أردنا أن نقتل حبّنا.

لكأن كلّ رجل يحتاج إلى القليل من حب جسدي، بعد فتاة كان يربطه بها حبّ عاطفي، وقد حرمته تلك العاطفة من إشباع رجولته، فلجأ ليفرغها بأخرى، ليست امرأة، بل تملك فقط جسد امرأة.

هل يكون جميع الرجال هكذا؟

يسرعون، دون أن يذرفوا دموعاً على فقدان عاطفة أو موتها، ليذرفوا رجولةً على عاطفة من نوع آخر!

وهل تموت العاطفة حقّاً؟

إنّ فقدان العاطفة، لا يعني بالضرورة موتها تحت رماد الماضي، هي فقط تائهة تحت جمر الماضي، وعلى استعداد مستمر، وقد لا تدري متى تهب رياح ملغومة لتشعلها من جديد، فتحترق أنت بمتعة أجمل، وكأنها لم تحرقك بلوعتها في وقت سابق.

لماذا يلحق بكلّ حب قوي.. آخر هزيل؟ ولماذا يخضع كلّ شيء في الحياة لقانون الجنس والسرير؟

دوماً، الممارسة الأولى.. هي حتماً الأجمل.

وهكذا يأتي الحب الأوّل، الصداقة الأولى، كما الكتاب الأوّل.

ربما لأنّها تجربة تدخل حياتك بشيء جميل لم يكن من قبل.. وكلّ تلك الأشياء التي تأتي في ما بعد، ليست جديدةً، إنما متجدّدة. هي جميلة في بهاء لحظتها، وميزة إكسسواراتها. لكن، يفقدها ذلك الشعور الغامض الذي يقول لك إنّك انتقلت من لا شيء، لتصبح.. أكثر من شيء.

ولا أدري لماذا دوماً خلال بعاد الحبيب، تبتعد عنك كلّ الأشياء التي تحبّها أيضاً، فبدل أن تقف أنت لحظات صامتة عن روح ذلك الحب، يقف الحب عن روحك لأزمان

صامتة، فتكف فيها آلاتك الموسيقيّة عن الغناء، وتتحوّل من راقصٍ إلى تمثال، ويتجمّد الحبر في قلمك ككاتب.

وعلى أنّه لا بدّ للألم من أن يصبح أقوى من الصمت.. تسترجع يوماً بعد آخر تلك الأشياء التي تحبّها، فيعود حينها ذلك الحبيب الذي رحل أو رحّلته ذات يوم في ذاكرتك، من غير أن يعود حقيقةً.

تعزف، تكتب، وترقص من جديد، بسببه هو فقط.

ما أغربنا حين نعرف السعادة بقرب من نحب، ونبتعد عنهم شيئاً فشيئاً، نجرحهم بتصرّفات لم يتوقّعوها يوماً، ننسى سعادة عرفناها معهم ونرحل!..

ما أغرب القلوب الراحلة حين يلسعها الحنين وتحرقها لوعة الاشتياق.. حين تعود حاملةً معها ألوان الربيع لترمم ما ألحقت به من دمار.. تعود بدافع من الأمل وحاجز من الخيبة.. تعود وكأنّها سفينة دون شراع، كسمكة على شاطئ تتوق إلى المياه، كعصفور فقد أمه ولم يتعوّد بعد على الطيران، كبطل شجاع رفع راية الانهزام!

كذا فعلت أشباح القدر بأمثاله، فكلّ ما أعطته الدنيا إيّاه كان ديناً عليه.

فانتبه أيّها الإنسان لخياراتك في هذه الدنيا، ومنها شيئاً لا تأخذ، لأنّها عن حقّها أبداً.. لا تسكت.

فلولا الابتسامات التي منحته إيّاها بالأمس، لما كانت

دموع اليوم.. ولولا فرحة التلاقي التي أنعمت بها عليه، لما كانت لوعة النوى..

***

كان ذلك صيفاً حارّاً جداً، وقد هزّت فصول تلك العاطفة درجاته،، لتهطل أمطار الشوق، وتهب رياح الحنين بجنون لم يسبق له مثيل.

منذ ذلك الوداع، اكتمل القمر عشر مرّات..

قبل عشرة أشهر، كان فصل متعة الحب، وبعده بأيام، جاء فصل حبّ المتعة، وتبعهما فصول أخرى من ثبات عاطفي بارد، ليدخل فصل صيف مليء بلهيب عاطفة ثابتة.

منذ ذلك الوداع، سافر وأخذ العلاج الكافي الذي قد يبقيه لسنوات عديدة قبل أن يرحل أبداً..

قال له الطبيب يومها:

- جد لك امرأة تتزوجها.. قد يخفف عنك أيام عذابك ووجعك.. تستحق شيئاً من السعادة المؤقتة.. لا تفوّت عليك فرصة عشق جميل، فالمريض كأي إنسان آخر، يستحق حتى في عذابه أن يختبر منعطفات الحياة.. ويستحق رغم كل تقلباته وعدم تماسك حالته الصحية أن يسعد بعض الشيء.. من حقك أن ترى أولادك يكبرون أمام عينيك، وطفلة تلهو

في حضنك.. ثمة أناس صادر القدر حقّهم في الحياة مثل الآخرين.. إنهم أولئك الذي يجتازون المسافات وقوفاً لأنهم لا يملكون المتسع الكافي من الوقت كي يجلسوا.. يجتازون المسافات محمّلين بأوهامهم وخيباتهم ومستعدين للرحيل في أي لحظة يصرخ بها القدر.. قد تمنعك الحياة من عيشها حتى آخر نفس، لكن لا شيء يمنعك من استغلال متعتها حتى أخر رمق!

كررها عند الباب:

- جد لك امرأة تتزوجها يا رجل!

ذاك تموز.

عاد الحبّ من تحت رماده، ليشتعل بجنونه الأكبر.

وصلت مهى إلى منزلها، وكانت قد خطّطت لبدء العطلة الصيفيّة على الشاطئ، وقد استأجرت منزلاً لقضاء تلك الرحلة هناك.

في بادئ الأمر، لم ترغب بالذهاب.. كانت متعبةً، وبحاجة إلى الوقت لتخلو إلى نفسها لبضعة أيّام. لا الشواطئ، ولا المنتجعات السياحية تعنيها، لكنّها عبثاً حاولت إقناع نفسها.

لعلّها كانت بحاجة إلى تلك الرحلة أكثر من حاجتها إلى أيّ شيء آخر، وخصوصاً أنّ تمضية أسبوعين على الشاطئ هي شيء لا يحظى به كلّ الناس هنا.

انحرف السائق إلى الجهة اليمنى، سالكاً درباً رمليّةً ضيّقةً، بان في نهايتها الخليج الصغير، وعلى جانبه مساحات رملية بيضاء، تتخلّلها صخور ضخمة ملساء.

إنّه يشبه المكان الذي التقيا فيه للمرة الأولى عندما كانا صغيرين دون سنّ العاشرة، يبنيان معاً قصوراً في الرمال.

حاولت طرد تلك الأفكار من مخيلتها وكبت أحاسيسها، مخافة أن تعود أيام الصيف الماضي في لحظات.

فشرّعت أبواب الذاكرة اللقاء بينهما، وتفتّحت نوافذ العودة.. تصادمت الذاكرة بين العودة والفرار.. عادت الذاكرة إلى قلب هائم تائه، لم يشفَ من فتاة أدخلته في حالة هذيان.

ورغم أنّه كان شجاعاً في الحبّ، فقد تملّكه بعض الضعف في مواجهة ذلك الحب. كلّ حب يجلس في محطة الانتظار، دون أن يعرف طريقاً يسلكه، هو حبّ ناقص.. وهذا الحب، ما لم يحظَ بالشجاعة، لن يملك يوماً تأشيرة «حب»، بل سيملك فقط، تأشيرة «شبه حبّ».

لا يكتمل ذلك الشعور إلا ساعة تقف أمام من تحبّ، لتقول له بكلمة واحدة: أحبّك.

بالتأكيد، هو لن يفعل ذلك مرّةً أخرى، كما فعل على الصخرة في أحد الأيام، ليقول كلاماً ستستقبله هي بسخرية، بعد أن فقدت، جرّاء جملة، تلك القيمة لمعناه.

ماذا تقول فتاة لرجل، يوم يعود ليقول لها كلمةً سبق وفتك بها؟

إذا كانت تبادله الشعورنفسه، فحتماً ستقول«أحبّك»، ذاك أنّ شعور الحب دوماً أقوى من رغبة الانتقام.

كان المنزل المقصود وحيداً في ذلك الامتداد الرملي الشاسع، يلمع بألوانه البرّاقة تحت أشعة الشمس، لا بدّ من أنّه كان يخصّ أحد الصيادين، أو أنّ عاشقاً بناه ينتظر حبيبةً حرمه القدر منها، حبيبةً ابتلعتها البحار، حبيبةً عاهدته أن قد تعود يوماً، إلا أنّها لم تفعل، فرمى بنفسه بين البحار، علّه يراها هناك حيث الأحلام والأوهام.

كان المنزل الخشبي، فائق الجمال في بساطته، وكانت الأبواب والنوافذ زرقاء اللون، لتتناسب مع البحر الممتد أمامه.

إنّه المكان المناسب لتمضية العطلة، بالرغم من جوّ التشاؤم المخيّم في مخيلتها.

لم يكن في الداخل شيء يستحقّ الذكر؛ إنّه عبارة عن صالون متوسط الحجم، خمري اللون، وفي الناحية الأخرى، وضعت طاولة للطعام بجانب نافذة تطل على مطبخ رخامي كبير.

صعدت مهى السلالم إلى الطابق الأعلى. أطلّت من

النافذة، لتجد البحر الشاسع أمامها، والشمس قد مالت إلى المغيب، فألبست الأفق ثوباً ذهبيّاً رائعاً. حقّاً ستكون عطلةً رائعةً. . وضعت أغراضها، وبدّلت ملابسها. . هرعت نحو الشاطئ بخفّة غريبة.

هي ذي إذاً تجلس على شاطئ الذاكرة في أحضان قلبه، تمتد أمام بحر حبّه. . هو ماض لا علاقة له بحاضرها. . فقد أصبح شيئاً من تاريخها عندما كانت كل شيء في تاريخه.

***

في أحد الصباحات، بينما جلسَت على الشاطئ تعبث بمياه الذاكرة، كان هو في حديقة منزله، يرتشف خمر ذكراها. وعلى غير عادتها، عادت أصابعه تعانق العود والوتر.

وكان لزيارة ابن عمّه في ذلك اليوم، أكثر من خطّة أعدّها القدر بذكاء، لتبدو وكأنّها فقط. . مصادفة.

وحده القدر يتقن المصادفات. . بإغراء.

وحده القدر يسعدنا. . ويبكينا كيفما يشاء.

في لقاء تافه لا يستحقّ الذكر، لا تدري أنّ حياتك بعده ستأخذ مجرًى آخر، تكتشف به أشياء لم تعرفها من قبل.

قال رامي:

ـ غريب، لم أرَ العود في يدك منذ أشهر.

ـ عندما يشتدّ بك المرض، لا تملك سوى أن تعود إلى عاداتك الأولى، التي بها وحدها يمكنك أن تواصل الحياة. لطالما عاد الفنانون إلى ممارسة الأشياء التي يحبّونها لحظة فتك بهم المرض، ولطالما مات آخرون لأنّهم تخلّوا عن فنّهم.

بينما واصل العزف هو، قال رامي بنبرة متعجّبة:

ـ أيّ مرض لا قدّر الله.. لقد قلت بأنك خضعت لعملية ناجحة.. ما بك؟

ـ هذا مرض من نوع آخر.. عاطفي.

ثم واصل أمام دهشته وارتباكه:

ـ إنّه المرض الأكثر انتشاراً في أيامنا؛ ألم تسمع بعدد من الضحايا والمصابين؟

أطلق ضحكةً مريرة، ثم صمت، فقال الآخر:

ـ كلا.. أنا لا أؤمن بهكذا أمراض، المرض الوحيد الذي أعترف به، هو أنك أصبت بالجنون.

ـ إذاً، أنت فقط أطلقت على المرض اسماً آخر، ليصبح، جنوناً عاطفيّاً.

أمام ما ظهر من غموض منه في ذلك الحديث، وأمام ذلك الوجع العاطفي، علّق رامي كمن اكتشف شيئاً لم يكن في الحسبان:

ـ ما زلت تحبّها.

أحياناً يكون الصمت أكثر وقعاً من الكلام، فاكتفى بمواصلة العزف.

فكرةٌ مجنونة عبرت في رأس رامي، الذي كان في الواقع من أعزّ أصدقائه.

لم يكن ذلك زمن الرسائل والطيور البيضاء، كان زمن اللهفة والشهوة اللّتين تتربّعان على حافة الهذيان.

لم يكن زمناً للحب، بل زمناً لغباء الحب، فلم يكن قطعاً وجوداً لما يسمّى حبّاً من طرف واحد، بل هنالك حتماً وجود لما يسمى وهماً، وأوهام من طرف واحد.

هناك فرق كبير بين منطق الحب، والحب اللاّمنطقي، ذاك أنّ في الأول يأتي الشعور من الأولويات، لكن تدعمه جدران من التفاهم والتساوي وتبادل الأحاسيس. أمّا في التالي، فيكون الشغف فقط على قدْر كبير من الأنانية، حتى لا يشاطره شيء من المنطق.

من الواضح أنّ الحياة لا تخلو من المخلصين، أولئك الذين يأتونك في لحظات حاجتك إليهم، وفي وقت تظنّ أنّ الدنيا قد خلت منهم. يعرضون عليك المساعدة، ويُقبلون على أشياء غريبة لم تتوقعها منهم يوماً.

من زمن الأوهام، إلى زمن الشواطئ. انتقل رامي بسيارته.

كانت مهى حينها، جالسةً على الشاطئ، تحت خيمة من القصب، ترتشف القهوة كما ارتشفت العشق. بدت سعيدةً بمجيئه، فسلّمت عليه بحرارة مفاجئة، جلس على كرسي إلى جانبها قائلاً:

ـ لم أرك منذ فترة طويلة، لكنّك ما زلت كما كنت، بمنتهى الجمال.

مازحة:

ـ هل للجمال أن يتغيّر مع تغير الوقت؟

قال:

ـ الجمال لا يتغيّر إلا عندما يتغيّر أصحابه، فعندها يزدادون جمالاً، أو يصبحون أقبح.

ـ أفهم أنّني ما زلت مكاني إذاً.

ضحك:

ـ أمثالك لا يتغيّرون. . أو ربّما، إلى الأجمل فقط.

كثيراً ما نذهب إلى أماكن بأهداف، لتصبح لدينا أهدافٌ أكبر ساعة وصولنا، والتي تنسينا بدورها الأهداف الأساسيّة التي أتينا من أجلها في بادئ الأمر. تغرينا رغباتنا الخاصّة، بالمشي فوق أحلام الآخرين.

لعلهما تحدثا عن أشياء كثيرة. . لا أدري!

بعد مرور ساعة تقريباً، نظر رامي إلى ساعته، وكانت تقارب السادسة عصراً، قال:

ـ يجب أن أعود الآن، أمامي مشوار ساعة في السيارة.

ـ إذاً، سأراك متى أعود.. بعد أيام تقريباً.

بعد ربع ساعة من رحيله، فوجئت به يعود، كمن نسي شيئاً مهماً.

قال:

ـ لقد نسيت أن أعطيك هذه الرسالة، يمكنك أن تقرإيها متى تشائين، لكن ابقي خلال قراءتك بعيدة عن الشاطئ، قد تصيبك بدوران يدفعك إلى السقوط..

تساءلت..من يا ترى سيرسل برسالة إليها في هذا المكان، ولأيّ مناسبة.

فتحت الظرف وبدأت بالقراءة:

28 يوليو 2005

«حبيبتي...

مرت سنة تقريباً.. وما زلت مريضاً بك..

لو تدرين كم أحبك.. فقط لو تدرين! منذ ذلك اليوم لم تفارقي مخيلتي لحظة واحدة.. وتلك اليمين التي أقسمتها سأبقى أرددها حتى آخر نفس من حياتي.. فالحياة بدونك عدم.. وأنا لا أعيش إلا بأمل واحد، وهو أن أرى الحياة بعينيك..

سأشرح لك لاحقاً عمّا مرّ بي من أيام قاسية.. وستتفهمين.. حتماً ستتفهمين..

سأشرح لك كل شيء.. حتى سبب رحيلي..

إنّي أحبّك حتى الموت، وأجول العالم كلّه من أجلك.

ما أتفه الحياة بدونك! كل ساعة وأنا بعيد عنك مملّة.. أتمنى لو يمّحي ذلك النهار ولا يذكره تاريخ، ذلك النهار الذي شوّهتُ به حياتي ورسمْتُ دمعةً على وجهك..

ما أقسى الزمان، فهو إن أعطانا ساعات من السعادة، فما أجملها من ساعات، ولكنه سرعان ما يقلب الأشياء رأساً على عقب..

كلما نظرت إلى وجهك، أزداد شغفاً بالحياة، ويسري في عروقي دم الأمل.. مهى، كم أحبك.. أتدرين، أهواكِ بلا لقب..

مهى.. ما زلت مجنوناً بكِ...».

لم يكن هناك من توقيع في أسفل الصفحة، ذلك أنّ رسائل الحب ليست بحاجة إلى أسماء ثبوتيّة كي نعرف هُوية المرسل، هي فقط، في أسلوبها، ووقع كلامها، أكبر من أن تنفضح أمامها الشخصيات.

قرأتها مرة أخرى، وبدأت التساؤلات!

هل تتجاهله؟ وتتناسى؟

هي التي تحترف النسيان، هل ستمنحه فرصة بطولة أخرى؟ هل ستقول له أحبك؟

أيام يائسة، وأنت تنتظر على مقاعد الشوق، وقلبك يقفز من زاوية إلى أخرى في غرف الحنين،صباحات تستقبلك كأنّها ليالي، وليالي حجب غيم القدر الخبيث نور قمرها. أيام بعدها أيام، تهرب بها من نفسك إلى نفسك، تقوم بين عاطفة وأخرى، بضربة وتر، وأنين عود.

وإلى متى سيبقى القلب هارباً؟

أنت الذي لا يعرف ما يخبّئه لك زمن المنعطفات، لا تدري ما ستواجه من سعادة مؤقتة وخيبات مبعثرة.

أنصب الغد لك شركاً في دهاليز الذاكرة، أم أنّ هناك مركباً آخر سيحملك أنت وأحلامك إلى مدن الاستقرار؟

هل بعد اليوم ستنام على غناء ملائكة النسيان، أم أنّ شياطين الذاكرة ما زالت هناك، شرشفاً تتغطى به من برد الحنين؟

في تلك الأيام اكتشف عادةً جديدة، تسكّن القليل من هذا الوجع. أصبح، يومياً، خلال فترة بعد الظهر، يتوجّه مشياً على الأقدام إلى وادي «ميدون» الذي يفترش أطراف كفررمان.

في الواقع، لم يفترش ذلك الوادي تلك الأطراف، بل

ابتلع بساتين من الحمضيات، وغابات من أشجار الصنوبر. . بساتين وأشجاراً ما عادت موجودة إلّا في الذاكرة.

قبل اليوم ببضعة أعوام، ما أمكنك القيام بهكذا زيارة إلى «ميدون» إلاّ بذريعة المقاومة. لقد خضع هذا الوادي لظلم الاحتلال الإسرائيلي لقرابة عشرين سنة، كان خلالها خالياً من البشر، بل فقط أشلاء مقاومين قاموا بعمليّات استشهاديّة في سبيل الوطن، وآخرون اخترقهم رصاص العدو وهم يقومون بالتخطيط لعمليّاتهم. . ليبقوا أجساداً ترتوي الأرض من دمائهم، وتأكل الديدان أطرافهم، وتحمل الكلاب عظامهم.

كان لوجودهم أكثر من وجبة غذائيّة، لكثرة ديدان القدر.

إنّهم الذين أهدتهم الحياة أكثر من طريقة للموت.

لقد ارتاد هذا الوادي جميع أنصار الحرية، من الشيوعيين، إلى الأحزاب القومية الأخرى، إلى حزب الله الذي على يده، إكمالاً لطريق من سبقه، أتت الحرية.

رجال ونساء، بعثوا أنفسهم ليقدّموا أجسادهم من أجل تراب الوطن، ذهبوا محمَّلين بقنابل الثورة وعطور الكرامة. ذهبوا إمّا ليعيدوا وطناً أو لا يعودوا، بل ولدت بموتهم صور لهم، نعلّقها على مداخل بلداتنا ونفتخر بهم. هم، شهداء أمّتنا.

إذا كانوا هم الشهداء، من كلّ أقطار الوطن، من «بنت

جبيل»، مروراً بوادي «الحجير»، صعوداً باتجاه «عرمتى» و«الريحان».

فماذا نكون نحن؟

نحن فقط أناس، خونة، وآخرون مقاومون من نوع آخر.. جاءنا التحرير، رغم عذابنا ووجعنا، على طبق من فضّة. ننزل يومياً إلى تلك الأراضي التي أصبحت منتجعات سياحيّة، رغم أنّها جرداء. ذلك، نظراً إلى ما فعله الإرهابيون من تنكيل بالأشجار والمزروعات، بعد أن لم يجدوا شيئاً ينكّلون به، وتفادياً لاختباء المقاومين في تلك الغابات.

لكنّهم، لذكاء دناءتهم، تركوا القليل من تلك الأشجار، لتبقى ذاكرةً لأخرى ما عادت موجودة.

أودية، لم نعرف عنها في السابق سوى، ذاكرة الأصوات.

لم نكن نعرفها عن نظر، بل حفظناها عن ظهر قلب بآذاننا، ذلك أنّ أصوات القصف، والقنابل، وصواريخ «الكاتيوشا»، كانت من وجباتنا الأسبوعيّة. كنّا نستمع إليها إمّا بخوف، وإمّا بعدم مبالاة، غير دارين بما يحدث في المجهول.

الآن فقط، يمكنني أن أذكر تلك الليالي التي قضيناها أنا وإخوتي في ملجأ لا تزيد مساحته عن أربعة أمتار، نتغطّى

بشراشف الرعب، وتزيد من دفئنا دموع الخوف، ننام على وقع الصواريخ، غير دارين إذا كان ذلك نومنا الأخير، أم فقط، استعداداً لنوم آخر.

لكأنّ الكتابة هي الممارسة الوحيدة التي تعيدنا إلى الذاكرة بحرفيّتها.

بين ذاكرة الأصوات، وذاكرة المجهول.. كانت ذاكرتنا.

بين ذاكرة شهداء الوطن، وذاكرة أشجار الأرض، كانت ذاكرة أبطال الحبّ تختبئ بخجل.

معزوفات كثيرة، منها سجّلت، وأخرى ماتت مع ولادتها.. كلّها.. للذكرى.

ذات يوم.. دقّ هاتفه، وكان في رنّته شيء من التواطؤ المغري.. وضع السماعة على أذنه دون أن ينطق حرفاً.

ـ آلو؟

كان صوتها..

ـ آلو؟

مرةً أخرى، جاء صوتها، بطيئاً، خفيفاً، كورقة يلاعبها النسيم.

لعلّها اتصلت، كي تعلّق على رسالته. ولعلّه يمكن للأحلام أن تواصل أحداثها حتى بعد استيقاظ طويل.

أراد أن يقول لها: «حبيبتي.. ها أنت أخيراً».

لكنه كبت لهفته قائلاً:

ـ أنتِ؟

أجابته ببراءة:

ـ نعم.. أنا.

الآن.. كاد يقول لها: «الله.. كم اشتقت لـ أنتِ!».

لكنه اكتفى بالقول:

ـ ما المناسبة؟

قالت بخجل:

ـ ليس هناك من مناسبة.. أنا فقط.. أنا.. أريد مساعدةً في مواد علم الفيزياء.. عندي امتحاناتي بعد شهر تقريباً. أنت تعلم كم أنا غبيّة.. أنا حقّاً بحاجة إليك.. في علم الفيزياء.

فرق كبير بين حاجتها إليه.. وبين «حاجتها إليه في علم الفيزياء».

نطق قلبه: «لا أريد مناسبة.. لا يا حبيبتي.. لستِ غبيةً سيدتي.. دعي الغباء جانباً.. وحدي أنا بحبك غبيّ».

لعلّه فكّر كثيراً قبل أن يوافق على طلبها، أو لعلّه شعر كثيراً قبل أن يفعل، وربما، لم يكن تدريسها هدفه، بل هو أراد أن يجتمع بها بأيّ حجّة كانت.

يكون قد أدرك في وقت لاحق خطأه في هذه الخطوة التي جرفته إلى أكثر من مكان، وأكثر من وعكة عاطفيّة.

قال لها:

ـ إذاً.. متى نبدأ؟

ـ لا أدري، ربما غداً.. أو متى شئت.

من جديد، نطق قلبه صامتاً: «أو في زمن آخر».

ألم تقل له في أحد الأيام، يوم تكلّما على القبلة التي راودته في حلم: «لا أدري.. ربما غداً.. أو في زمن آخر»؟

أجابها:

ـ غداً وقت مناسب.

كيف يؤجّل ذلك إلى وقت أبعد من الغد..فهو مستعد كي يبدأ اليوم أيضاً.. الآن.. لِمَ لا؟

هو الذي أحبّها بخشوع المؤمن على سجّادة الصلاة،أو بكفر الملحد في أحضان الأصنام.

ذاك الحب الذي يخضع لأحوال عاطفيّة ترتفع وتنخفض حرارتها خارج الزمان، لعلّه أحبّها بجنون المطر، وجمال الأزهار، أو بلهيب الشمس، وعري الأشجار.

ما أجمل فرحته تلك، وما أقبح خيبته بعدها!

توقّع بذاك الاتصال أن تأتي على ذكر تلك الرسالة، التي مرّت أيام عليها دون تعليق، لكنّها لم تقل شيئاً بخصوصها، وكأنّها لم تقرأها.

جاء الغد..ودخل روتينَ الحبّ القلبي، شيءٌ من الفرح.

أخيراً سيلتقي بها إلى الطاولة نفسها، كتلك التي

افتقدتهما منذ سنين،، لكنّهما لن يكونا في مقهى محاطين بأناس، سيكونان في غرفة في منزلها، محاطين بـ لا شيء.

راح يرتدي ثيابه بسعادة بلهاء، ويهيّئ نفسه كأستاذ سيدخل للمرة الأولى إلى صف حاشد بالتلامذة. اليوم، سيكون أستاذها للمرة الأولى، وستكون هي تلميذته.. للمرة الأولى أيضاً.

لكنّه لن يدخل صفّاً يغصّ بالتلامذة.. سيدخل غرفةً مملوءة بها فقط، لاغير.

كم كانت سعادته بلهاء، حمقاء.. وهمية.

جلس إلى الطاولة أمامها.. تانك العينان اللّتان افتقدهما منذ زمن، وتانك الشفتان اللّتان حاربتاه منذ أيّام.

أمام غرابة الموقف الصامت بين اثنين كانا في أحد الأيام عاشقين، واللّذين ما زال أحدهما على الجانب الأخير من الطاولة يعيش على كرسي الذاكرة، في تلك اللحظة الفارغة من منطق الحياة، جلس بغموض.

في تلك اللقاءات المتتالية التي حصلت بغية أهداف مختلفة، وآمال متناقضة، كانت هي تزداد معرفةً بالفيزياء، وكان هو يزداد جهلاً في الحب.

هل للحب فيزياء أيضاً؟

يزداد فيه الضغط العشقي كلَّما غرقنا في بحاره، أو تكثر

فيه الصدمات والطّلقات العاطفيّة كلّما ازدادت «رزستنس» الخيبة في قلوبنا؟

أما الخبر الأكثر جنوناً،فجاء صاعقاً، خالياً من الشبهات.

كان لا بد من خيانة صديق، لتزيد الفاجعة تدهوراً. وكما أنّ الدنيا لا تخلو من المخلصين، أولئك الذين يأتونك في لحظات حاجتك إليهم، وفي وقت تظنّ أنّ الدنيا قد خلت، هي أيضاً مملوءة بأولئك الذين يقومون بخيانتك في لحظة إخلاصهم الأكبر.

إذاً أحبّها رامي، لأنَّ قدر اللقاءات شاء أن تكون رسالةً واحدة بعثها إليها كافية لخلق مشاعر جديدة تجاهها.

وها هو الخبر يأتي بسرعة مذهلة، أحرق بعنفه جوانح فراشات الأمل تلك، ولكأنّ بعد كل فاجعة أمل، تأتي كارثة أكبر من التي سبقت.

الحياة التي أعدّت لك مسبقاً كل شيء قبل ولادتك، لا ترحم.

وهي المرأة التي أعدّت مسبقاً صيد الرجال، لا يزيدها الصيد سوى البهجة، لتصبح أكثر غروراً، هي التي قالت إنّ أجمل تجارب الرجال تكمن في سقطاتهم الشاهقة. كيف تفوّت صيد رجل؟

أن تدّعي الحب، لأنّ أنانيتك لا تسمح لك بغير ذلك،

فترمي الآخرين خلفك، لتزيد من كبريائك وانتصاراتك، مثل رجل أسس مشاريع ذكورته على مومسات رماهنّ جانباً بعد ضجر فحولته.

أن تعطيهنّ أملاً دون أن تدري بأنك تهديهنّ بعده موتاً.

على عجل، صمت ذلك الحب، تماماً كما أتى على عجل، ليصمت حبّ آخر.

والقلب من جديد وحده يرتجف تحت مطر الأيام، فيعود إلى فراشه مبتلاً.. باكياً.

ينام على دموع من وهم بأن الغد سيكون أفضل.

إذاً لا الرسائل نفعت، ولا اللقاءات ستنفع.. وحدها الذاكرة.. تقتلك وتحييك.. في اللحظة نفسها.

* * *

سنة أخرى تمر، تعيش فيها صحبة سيجارة، وفنجان ذاكرة.

تظنّ أنّك غداً ستنسى، فينساك الغد. وغد بعد آخر، يمرّ العمر، وتلك السيجارة ما زالت مشتعلة، لا تنطفىء.

وحدها سجائر الحب لا تنطفىء، ذلك أنّ نيكوتين الحنين يحترق باستمرار، دون أن يتحوّل إلى رماد. لفافة ممتلئة بتبغ الحب والشوق، تدمن تناولها، فدون أن تسكنك، تقتلك برخاء اللحظة ووجعها.

امرأة مرّت بمحاذاتك ذات يوم، قلبت حياتك رأساً على عقب، ومن ثَمّ رحلت، ليس فقط لأنّك أخطأت بحقّها، بل لأنّها ليست من أولئك اللواتي أتين ليبقين.

حتّى إنّك، لو لم تتخلَّ عنها ذلك اليوم،لكانت هي حتماً ستتخلّى عنك بعده بأيام.

تعتنق ديناً يمنع عنك شرب الخمرة، وتحب امرأةً توفِّر لك كلّ الأسباب لتشربها.

تسكر على وقع ذكرها.. كأنّك تسكر بها فقط، لا غير.

وحده الموج وهي.. لا يملان ارتطاماً.

* * *

لكل زمن رجاله، ولكل ذاكرة.. امرأة.

مرت السنة الثانية على مفكرة مرضه بها دون شفاء..

كانت صفحاتها السوداء تتوق إلى من تأتي وتطلق عنانها..

مفكرة حافلة بالتواريخ التائهة.. أو أقصد، مفكرة دون تواريخ..

دوّن عليها يومياً أوجاعه.. وبكى عليها آلامه.. مفكّرة أغفى عليها أحلامه.

في كل الصباحات التي استيقظ فيها، كان على مفكرة أعماله ومشاريعه.. مشروع يومي، بالعنوان نفسه.

نسيانها.

كان ذلك أصعب المشاريع على الإطلاق وأبهظها كلفة.

لا متّسع على أرض القلب، ولا تربة ملائمة، هي فقط تضاريس وعرة تكوّنت من مرتفعات الشوق ومنخفضات الحنين، تتوسّدها شواطئ الشقاء في مدّ العاطفة وجزرها.

أين يغرس نسيانها؟

أيحمله معه على مركب صغير دون شراع، يبحر فيه أبداً على مياه الماضي؟..وكيف ستكبر شتلة نسيان روتها مياه الذاكرة؟

أين يبني صرح نسيانها؟.. وكيف سيصمد صرح نسيان أمام رياح الذاكرة على الرمال المتحركة للحنين؟

سيذكرها بتطرّف.. سيذكرها كثيراً.. حد النسيان.

سيذكرها كما لم يفعل من قبل.. سينساها وكأنّه لم يلتقِ بها بعد.

ستكون أكثر مشاريعه نجاحاً.. أو ربما فشلاً.

كم كان نسيانها مكلفاً.. باهظاً.

هل هي كتلك الأحجار الكريمة النادرة التي أصبحت أسعارها اليوم تفوق قيمة البشر؟

ها أنا أقف أمام جدليّة مدهشة.

ما أثمن أسعار تلك الأحجار، حتّى إنّها تفوّقت علينا قيمةً.. أو ربما.. ما أرخصنا نحن!

نادر نسيانها، حتى إنّه تفوَّق عليه سعراً، نادر كتلك الأحجار التي أصبحوا يصنعون أمثالها تقليديّة.. بأسعار منخفضة.

إذاً. فلينسها بنسيان مزيف.. رخيص.

لينسها بنسيانٍ من الباب الثالث.. ليستورد نسيانها من الصين.

ليذكرها بجنون.. حد النسيان.

هو الرجل الذي وقع في شرك صمت الحب.

كم من القدرة كان يلزمه ليحارب إغراء الهاتف؟ كي لا يطلبها يومياً. صباحاً.. ظهراً.. ومساءً؟

كم من رقم حارب في حضرة الهاتف، وكم من «آلو» صمتت أمام استفزازه؟ كم من «أحبّك» كاد يقولها عبر ذلك الشريط السادي؟

كم من الصبر كان يلزمه لمحاربة الأشياء حوله؟

صبراً يا رجل، لم يمضِ سوى القليل.

وارقص، فقد اشتد صخب الحنين.

واعشق.. إعشق يا رجل، فالمرأة كالوطن، لست في سبيلها سوى.. قتيل.

***

وكأنّك أصبحت كلّ سنة على موعد مع الكوارث، كما تصبح كلّ فبراير على موعد مع عيد العشاق.

سنوات من الورود الحمراء، وبطاقات المعايدة، وقبل بالأحلام، ترسلها سرّاً إلى من تحب، ليكون هناك توقيع صغير على أسفل الورقة يعرّف عنك، ذلك نظراً إلى زحمة العشاق الذين قد يتوجّهون إلى امرأة واحدة.

لكن أمثالك، يوقّع القدر على بطاقات سعادتهم، فكلّ تلك الشراسة التي أتى بها العيد، تموت على يد صمت من تحب.

هي السعادة.. لم تخلق للعظماء.

فتعود أنت حينها لتفكّر. هل وصلت تلك الرسالة حقّاً؟ لعلّها لم تدخل منزلها بعد، لترى تلك الورود التي أرسلتها إليها، أو ربما هي مشغولة تحضّر لي مفاجأة مماثلة؟

أمّا في الواقع، فهي فقط تجالس أنانيتها، تسعد لذاك الكمّ من الهدايا، ولا تهديك سوى.. الخيبة.

لقد أصبح يتأقلم مع الكوارث العشقية التي يدخلها بلهيب الجمر، ويخرج منها بصقيع الرماد.

يقول لنفسه، محاولة أخيرة وأنتهي، وإذ به يدمن المحاولات، حتى تنهيه.

جاء ربيع الحزن الثالث.

أذكر روايةً قرأتها يوماً بعنوان «القلب إذا سافر».. حيث سافرت «فاليري» إلى آخر العالم، وفي حقيبتها أمانة، وفي قلبها حمل ثقيل..

إذا كان للقلب حقّاً أن يسافر.. فسافر ولا تعد..

كانت حقّاً لصّةً.. سارقةً لقلبه وغاويةً له..

في أيام هربه منها، قرّر السفر إلى إيطاليا، بلد «الباستا» و«الجلاتو»، بلد الفنون الجميلة، اللوحات الرائعة والمباني الضخمة.

ـ إذا نظرتم إلى اليمين يا سادة، ستلمحون روما.

ظهر مساعد الطيّار من خلفه، وأشار من فوق كتفه مضيفاً:

ـ وهذه الجزيرة التي تشبه الهلال.

نعم... في بلادنا، لا تسمّى سيداً ولا تأكل أطباقاً شهيةً إلا على متن طائرة.

مال صديقي إلى الأمام يتأمل بقعاً من الأرض تطفو كأحجار من الزمرّد الأخضر على المياه الفيروزيّة، متسائلاً بعجب لِمَ يملأه منظر الجزيرة الرائعة، حتى من هذا البعد، بمثل هذا الشعور الغريب.

عند وصولهم، تجوّل السيّاح في أرجاء المدينة، وقاموا بزيارة متاحف ومقرّات سياحية شهيرة.

دخلوا سوقاً تراثيّةً قديمةً.. علت الأصوات الصاعدة من

الخمّارات، واستولى ضجيج الباعة على طرقاتها.. منهم من يقوم بالألعاب البهلوانيّة، وبعضهم الآخر يبيع التحف والتذكارات.

على قطعة خشبيّة نحت حبه لها.. على قطعة خشبيّة نحت اسمها.

نحت اسمها على تلك القطعة، وكانت تنحت دون أن يدري أعواماً من العذاب على جدران قلبه.

في اليوم التالي، توجّهوا إلى البندقية.. إحدى أشهر المناطق السياحية في العالم..

إنّه حقّاً مكان رائع.. لا «أوتسترادات» ولا طرق.. فقط ممرات مائية وبنى أكلت المياه الطوابق السفلى منها، وتركت الأخرى تفيض في السماء.

ـ تغرق المدينة عدة سنتمترات في المياه سنوياً..

أشار المرشد السياحيّ إلى بناء ضخم، وأردف قائلاً:

ـ هناك مسرح للأوبرا، ينزل فيه أشهر نجوم العالم للغناء، وستكون سهرتكم الليلة هناك.

علّنا نحن البشر كمباني البندقية.. نعمر فوق مياه القدر.. قدر يغرقنا تدريجياً، ومن ثم يقرّر نهايتنا.

هناك مدن تشبهنا تماماً.. كباريس، مدينة الرومنسية.. كروما، مدينة الفنون.. كمدن النشوة ومدن النضال.. كمدن خائنة ومدن عارية أيضاً..

إذاً. . كلٌّ منّا مدينة. .

أمضى السيّاح عطلةً رائعةً بضيافة إيطاليا.

رحلة مرّت على عجل، كما كلّ الأشياء في أيامنا، لا تكاد تسعد، حتى تنتهي الحلقة، وعليك أن تنتظر أخرى.

هكذا الحياة، لقد أصبحت كالمسلسلات المكسيكية، تنتظرها من يوم إلى آخر، لتجلس وتحرق أعصابك بخرافاتها، لتنتهي في لحظة جنون وانسجام، لتقول لك: «يتبع. . .».

ومن (يتبع) إلى أخرى. . يأتي هلاكنا.

وكالعادة، اشتروا تذكارات للأحبة والأصدقاء. . أهمها تلك القطعة الخشبية التي حفر اسمها عليها، آملاً أن يلقى تجاوباً عند عودته. .

من يرتكب حماقةً مرّةً، قد يفعلها مجدّداً. . لفرط ما أحبّها، كان لا بدّ من محاولة ثانية، منعطف آخر، قد يأخذ الحبّ به مجرًى آخر.

لم يتعلّم، أنّ أمثالها لا حبّ في حضرتهنّ وأنها امرأة لا تعرف كيف تحب، بل تتقن وضع فخاخ الحب.

«أهلاً بكم على طيران الشرق الأوسط، نطلب من الركّاب الكرام شد الأحزمة. . ستقلع الطائرة الآن. . نتمنى لكم رحلةً موفّقة. .».

خلال الرحلة، قدّمت الأطباق المعتادة. . وكعادتها،

كانت أصناف الفاكهة عديدةً. تناول حبةً من الخوخ، وما إن وضعها في فمه، حتى أحسّها نتنة.

عندها أصبح على يقين بأنَّ الليل لن ينجلي.. ستبقى القيود.. ستعود الأمواج ترمي به على شواطئ اليأس.

كانت تنتابه الشكوك، وكأنه يقرأها يومياً على شريط الأخبار، أو في عناوين الصحف.. ولكنه رغم ذلك انتظر..

انتظر كما لم ينتظر من قبل..

انتظر بينما اشتعل الشوق في داخله؛ كان ينتظرها مع كلّ نفَسٍ، مع كلّ دقة قلب..مع كلّ ضربة وتر وإيقاع نغم.. انتظرها..

لم يلقَ أيّ جواب..

مرَّ أسبوع.. وهو على الأمل نفسه..

لا أكثر وجعاً، من صمت من تحبّ عندما تكون في الحاجة الكبرى إلى صوته. أنت لا تريد منه بعد الآن أن يحبك، لأنّ كلمة (أحبك) ما عادت تنفع بعد كل ذلك الحرمان العاطفي، أنت فقط تريد أن يقول أيّ شيء، كـ (عذراً.. لا أحبّك).. أيّ شيء سوى مبادرتك صامتاً.

أحياناً، في الصمت إهانة لا مثيل لها. ثَمة من يستفزك دون أن يقول شيئاً، يعرّيك من كرامتك واحترامك، ويعرّي احترامه للحب نفسه.

قد سبق وصمتَّ إزاء رسالة، هل ستصمت اليوم على محاولة بطولة أخرى؟

فكرت كثيراً قبل أن تتوجّه إلى صديقتها، علّها تعرض شيئاً للمساعدة، لأنّها لا تدري كيف ستواجهه.

أوقفت سيارتها أمام كوخ خشبي صغير، أخذت ممراً ترابياً ضيّقاً بين أشجار الصفصاف، زُرعت على جوانبه الأزهار المختلفة بألوانها المتناسقة وعطورها الجميلة.. وصلت إلى المنزل، وكانت عندها صديقتها «يارا» جالسةً على الأرجوحة في الحديقة الأماميّة، وما كادت تنتهي من مكالمة هاتفيّة، حتى غمرت الاثنتان الواحدة الأخرى.

بعد السلام، ودخولهما إلى المنزل، وقفت مهى أمام لوحة علّقت على الحائط في غرفة الجلوس، وقد أثّرت فيها كثيراً، وهي قليلاً ما تتأثر بشيء.. نظرت صامتةً مطولاً..

عادةً.. أقبح ما تهديك إيّاه الحياة، تعطيك عنه لمحةً منذ زمن طويل.. إلا أنّك لا تدري في اللحظة تلك، أنّ ذلك هو مصيرك يوماً.

تعطيك عنه لمحةً في أغنية أو في كتاب.. أو في لوحة ربما..

كسرت يارا حجب الصمت قائلةً:

ـ وأنتِ؟ أخبريني كيف حالك؟

أخبرتها مهى عن هدف زيارتها وقد بدا عليها الارتباك،

لقد سئمت من هذا الأمر، ولا تريد أن تشغل نفسها بتفاهة، تسمى: الحب.

هكذا يلهون بك، يدوخونك بحضورهم، كما بغيابهم.. يأتون عندما لا تتوقّع.. يرسمون لك أحلاماً جنونيّة، ويقنعونك بأنّها حقيقة.. من ثَم، يصمّمون على الرحيل فقط لأنّك تريدهم أن يبقوا.

ينثرون ذاكرةً تتعثّر بها أينما تكون، لأنّهم صادروا كل أدوات النسيان.

عبثاً حاولت يارا إقناعها بحبّه.

امرأة مثلها، بشراسة الشهوة، وعناديّة الثورة، لا تنفع معها محاولات إقناع.. هي امرأة القلب المتحجّر، تقف على حافة الاشتهاء، لتبعثر الرجال أرضاً، تمدُّ يدها نحوهم، لكن شعارها الوحيد يقول: «الوصول إليّ مستحيل».

امرأة المحال، لا تبقى إلى الأبد، لكنّها تمرّ بين زمن وآخر.. تأتي يوم تظنّ أنّك نسيتها.. تأتي متحرّشةً، لتعبث بالذاكرة.

ثمة نساء يخلّفن وراء حروبهنّ العشقية الكثير من المقابر الجماعية.. يفضّلن أشلاء رجل، على ثقوب في قلب رجل.. فالقنص عندهنّ، لا متعة فيه لأنه يحتاج إلى شغف نظري.. والرصاص بنظرهنّ، هوس صياد بريّ.. وحده

القصف العشوائي يعنيهنّ، ولا شيء سوى الشباك البحرية يمتّعهنّ.

ولذا عليك أن تحذر من امرأة تملك الكثير من المقابر، فهي أكثر عظمة من أن تستثني.. رجلاً واحداً!

هي مشاغبة كالأطفال، بكسل الحب.

كان يحلم بها تعود إليه، أو إذا صحّ القول، كان يحاول مواصلة ذلك الحلم. كيف ينسى ما قالته في أحد الأيام: «عندما تحلم، عليك ألاّ تفكّر في الحقيقة، لأنّها دوماً تعاقبك على أحلامك. عندما تحلم، عليك ألاّ تستيقظ، لأنّك بعد لحظة يقظة لن تتمكّن من مواصلة ذلك الحلم من جديد، ذلك أنّ في الأحلام أنانيةً كبيرةً لا تضاهيها أنانية».

لأنك حلمت، فأنت حتماً تستحق العقاب.

ركنت يارا سيارتها أمام المنزل.. جالت في رأسه التساؤلات وهو يلقي التحية عليها.

أهلاً بكم في عصرنا.. عصر تحوّل فيه الحب الى (ستايل)، وأصبحت (المارسيدس) آلة المشوار، والقصر مكان اللقاء، ولما سمّي حبّاً إذا ما عبر السرير. هذا هو حب العصر، خصوصاً الشرقيين، أولئك الذين لا يفهمون المرأة إلا داخل السرير، وأولئك النساء اللواتي يحببن المظاهر وليس ما في الداخل.. أولئك النساء اللواتي يتسابقن لوضع الحليّ ورش العطور الجاذبة.

عليك أن تنسى ذلك الماضي وتخطو إلى الأمام.. أنت لست من النوع الذي يعجبها (ستايلك) يختلف، فهي لا تحب الرجال المستبدّين، ولكن هذا ليس مهماً، ستتخطى هذه المرحلة يوماً.

في زمن اللاحبّ، أحبها..

ثَمة حب، لا يختلف عن الموت، يأتي مفاجئاً.. مباغتاً. يذهلك، وفي الواقع، يمنعك من العودة إلى الحياة.

موتاً، كان حبّها.

انتهى النهار وهو يفكر في الخبر الذي أتت به تلك الطيور.

«ستتخطى هذه المرحلة يوماً».

كيف يرمي تلك الوعود جانباً ويرحل؟

لا.. لن يفعل.. سينتظر العازف راقصته.. سينتظر وإن طال الانتظار.. إنها الفتاة الوحيدة التي أحب وسيحب إلى الأبد..

إنّ الحب شيء جميل طاهر، وأجمل ما فيه، هو أن يكون الإنسان مخلصاً في حبّه، وأن يعطي من أعماق أعماق قلبه، حتى يتمتع بعذوبة الحب الصافي المجرّد.

تراه حاول أن يتحدّى القدر، ليتعدّى على الاقتناع بالواقع؟ تراه أحبّ لذة العذاب بها.. لذة الوجع

والاشتياق. . أحبّ أن يتألّم بها. . أحبّ أن تشاركه منزله وكوبه. . أن يستيقظ على صوتها وأن ينام على عزف أنفاسها. . . ؟

أحبّ أن يجرّب كلّ شيء معها، إلا أنه لم يحظَ إلا بتجربة أشياء.

أو لعلّ العاطفة فاقت حدود المنطق، لتأخذ بعداً مرضياً.

في الحب تأتي الأشياء معاكسةً للمنطق تماماً. . إذا أحببت أحداً، عليك أن تتجاهله قدر المستطاع حتى يهواك. . فنحن دوماً نريد ما لا يمكننا الحصول عليه. .دوماً ننظر إلى المحال.

لماذا نأخذ القرارات لنتحدّى القدر رغم الفشل؟. .

لماذا نرفع أعيننا إلى القمر رغم القبوع في الحفر؟. .

لماذا نخوض المعارك رغم يقيننا بأننا سنرفع رايات الانهزام؟. .

ونبقى. .

وسيبقى يتحدّى رغم يقينه بأن الوصول إليها محال. .

في النهاية. . لكلٍّ فاجعة مذاقها الخاص، وكان لرفضها الثاني، الآن. .طعم الفجيعة الثانية.

***

بعد فجيعة حبّ، تأتي فجيعة من نوع آخر.. إنه الوطن.

كان يومها وصول أختي إلى لبنان مفاجئاً، وكنّا عائلةً تحب المفاجآت، حدّ الخيال. بدت أمي سعيدةً بوصولها، فهي لم تأتِ لبنان منذ سنتين، ومن الطبيعي، أنّ سعادة أمٍّ، تفتقد ابنتها منذ سنتين، ستفوق الطبيعة.

في زمن المفاجآت، قام رجل من المقاومين بخطف جنديين من القوات الإسرائيليّة، بهدف تبادل للأسرى المعتقلين داخل الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة.

ذاك اليوم، عندما ورد الخبر العاجل، عمّت الفرحة الكثير من اللبنانيين.

لكن الحادثة، لم تمر كما تلك الحوادث التي سبقتها، بمذكّرة من مجلس الأمن، تهدّئ الأوضاع. جاءت مذكّرة من العنف، بشراسة الغاب. راحت طائرات العدو تجتاح الأراضي اللبنانية، وراحت صواريخهم تدخل منازل الأبرياء عنوة، دون أن تطرق الباب أولاً.

ذاك 12 تموز.. اندلعت الحرب.

أخبار عاجلة، من مجزرة هنا، إلى محرقة هناك. عمَّ بها الموت أرجاء البلاد.

كنّا حينها في الجنوب اللبناني، وقد دمَّر الأعداء معظم البنى التحتية، بغية قطع المواصلات على شباب المقاومة، وسد طرق الهروب أمام الشعب.

حارب المقاومون بعيون شاهقة كي يعيدوا حق الحرية، فمنهم من عاد دون عينيه.. وثَمة آخر توغل ركضاً إلى أرض المعركة كي يطأ برجله أرض الوطن، فعاد على كرسي حديدية دون قدميه..

كان كل منهم شهيداً حياً بخيبته وأعضائه المبتورة.

ولكن أيضاً.. ثَمة رجال ذهبوا مكللين بالشرف والكرامة ليرحّلوا العدو عن الأرض.. كانوا هم من رحلوا.

حوالى الأربعين يوماً من الحرب وألفي شهيد ذهبوا ضحايا من إنجاز متمرنات إسرائيليات.

ذهبوا!

***

أصرخ يا رجل.. فالأدب لن يمحو ذكرنا..

ولا تخشَ.. واصل الكتابة وانتقم..

لقد خسرت كل المعارك.. فلا تفوت فرصة نصر حبري..

ولكن فجأة أجد نفسي آخذ قراراً لم أتوقّعه من قبل.

أنا الذي بدأ يكتب بجنون نزار قباني، وألوان فان غوخ، بدأ يكتب بلهفة شاعر اكتشف موهبته صدفةً، أو رسام اشتهر بلوحة قامت قطة القدر برسمها، بعد أن اندلقت الألوان عفوياً على الصورة.

أنا الذي، منذ سنين يكتب. في لحظة يتم صمتي بيني وبين أبطال روايتي، أكتشف أنّني لن أكتب بعد الآن.

لأنّ الكتابة ستأخذ اليوم مجرًى آخر، إذا بها قد فاضت عن ذاكرة الآخرين، لتصبح ذاكرتي الخاصّة. ولا بدَّ من أنّ هناك نيروناً ينتظر لمحرقة أدبيّة جديدة.

بعد أن أحرقتهم الذاكرة، ستتحرّش بي، لتحرقني معهم.

قليل من الاحتراق، لنصبح رماداً للذكرى.

لكنّني لا.. لن أكتب.

أشهر وأنا أنازع خلالها أمام رصاص الكلمات.. أقف بها مواجهاً القدر.. أرتدي ثوب الصمت في عتمة الذاكرة خوفاً.

فقط لأنّني وصلت إلى محطة جديدة من محطات القدر.. والتي بها وجدت نفسي على القطار الخطأ.

بعد أن كانت قصّتكما.. دخلتُ في لحظة يأس وموت إليها، لتصبح.. قصّتي.

وتأتي ذاكرة من لهب بسرعة ليلة واحدةلتغير مجرى حياة رجل اسمه.. أنا.

زمزمات

كم يلزمك من الشجاعة كي تهرب مما لا يمكنك مقاومته؟

وخلف الحائط الموارب لحديقة سجائر.. لكثرة ما اشتعلت، ما عادت تنطفئ!

كم يلزمك من الحقد كي تنسى؟! وكم من النسيان كي تدّعي: لا.. لم أَرَها من قبل!

لا.. لا الحقد ينسيك، ولا اللهب ينفع.

توقف عن حرق متاعك.. فللرماد ذكر آخر..

فالذي كان بيننا لا تكتبه الأيام، ولا يمحوه نسيان.

كنت دائم الاعتقاد أن أجمل الأشياء التي تعطيك إياها الحياة ليست سوى تحضير مسبق لموت مفجع.. على قدر جمالها.

وبأن فداحة الموت ليست سوى إحصاء شامل لحجم السعادة التي حظيت بها.

وبحكم الواقع هذا كنت -كلّما ينتهي عمر ويأتي آخر- أتسلق مرتفعات أحزاني وأنزع تلك الأجساد المشبوهة التي لكثرة ما تفجرّت بها.. ما عدت أنزف!

كل جسد أنتشله، وإذا بي أكتشف الحياة دفعة واحدة.. أتعلمها مرة واحدة، وكأنني ما عشت من قبل.

اليوم، عندما أقف على ضفة ذاكرتي لألقي نظرة على كل ما حدث بيننا، تنتابني مشاعر مختلفة بعض الشيء.. فأبتسم بتهكّم!

عجيب.. كيف يمكننا أن نكره أناساً قد حدث وأحببناهم ذات يوم.. كيف نصبح أكثر ألماً من أن ننسى، وأكثر استحالة من أن نسامح.

هذا هو واقع القصص الجميلة التي أصبحت أكبرمن الحياة بحد ذاتها.

أنا الذي لم أرَ يوماً رغبة التحرّش بأنثى.. كيف تثيرني رغبة التحرّش بذاكرة داخل كتاب؟ كيف سأنجح بمداعبة ذاكرة لأتسلى مرة أخرى مع القدر؟

لعلّ الكتابة كالجنس؛ لا يمكنك أن تأتيها إلاّ بفحولة الكلمة؛ وبعد شهوة طويلة، لتفرِّغ نشوةً مكبوتة من الكلمات، على صفحات.

ألم أقرّر أنّني لن أكتب مجدّداً؟

فجأةً بعد أشهر، أسقط أمام إرادتي. أكتب ملء أصابعي.. أكتب ملء يدي.

الكتابة هي الخطأ الوحيد الذي تقترفه أوّل الأمر، ويكون عقابه.. الكتابة إلى الأبد.

شيء في الكلمات.. يغري بالإدمان الموجع.

هل يموت الكاتب، جرّاء شحنة عالية من الكلمات (أوفر كلمة)، كما يموت مدمن المخدرات بشحنة (أوفر دوز)؟

وهل تَرْكُ أثرٍ للحب واجب علينا؟

أن لا تترك أثراً للحب في كتاب، أو معزوفة موسيقيّة أو لوحة، كأن ترتكب جريمةً بذكاء شاهق، دون أن تترك أداةً تعرّف عنك، ودماءً تفضح ضحيّتك. في كلٍّ جريمة ناجحة أمر من الفضيحة المستترة.

فهل ثمة جريمة دون احتفاء غامض؟

مرت ثلاث سنوات قبل أن آتي.

خلالها.. ثورات حب، أدمنتَ فيها تلقّي الجراح والآلام. كلّما تقدّمتَ حاملاً بيارق الأمل، عدتَ منحنياً رافعاً رايات الهزيمة. قلوب مشاغبة لا تتعلّم.. قلوب ثائرة بأسلحة الذاكرة.. الحنين، والشوق. لم تتعلّم أنّ الثورات ليست بطولات، بل أساطير..

تندفع بلا منطق. وحده القلب منطقها.

وأنت لا ذنب لك سوى عاطفتك.

***

على مقعد مقابل لفوضى الأيام، كرجل يستعد لإتمام صفقة.. لم أكن أنتظر!

لم أرتدِ يومها ربطة عنق، ولم أحمل قلم رصاص بمحاذاة قلبي كي أبدو بهيئة كاتب..

كنت أتصفحك بفضول وكأنني لم أعرفك من قبل.. وكان لحضورك ذاك المساء أسئلة كثيرة، ما زلت حتى اليوم، لا أعرف كيف أطرحها على نفسي دون أن أزداد تورطاً بالماضي، دون أن تتضح أمامي العناوين الأكثر ألماً.. والحقائق الأكثر كذباً.

ذاك ديسمبر 2007.. الساعة الثانية بعد منتصف الليل بتوقيت الخيبة!

السؤال الأكثر استحالة على ذاكرتي هو: كيف كان لتلك المصادفات أن تحدث، والحديث الأول عن إمضاء يحمل اسمها في منزل أصبح منزلها، دون أن نشعر بأن تلك الأحداث السخيفة ستغيّر في ما بعد مجرى حياة كل واحد منّا؟!

وهذا تمهيد لسؤال آخر أتى على الشكل التالي: كيف يمكنني اليوم أن أعود ذهاباً وإياباً على الخطوط الجوية للذاكرة.. دون أن أضحك وأسخر.. دون أن أتعثر بالمطبّات الهوائية لأسقط من علو شاهق للخيبة؟

سمعتك تروي قصتك بالتفصيل، دون أن أتيقن بأنّها

ستصبح قصّتي، وأنّ القدر يومها قام بكتابة الفصل الأجمل من مسرحيته، والذي به.. سينقلب كل شيء.

أناس تلتقيهم للمرة الأولى، كأنّك انتظرتهم منذ زمن، بل أنت فقط انتظرت أمثالهم.. يأتونك في لحظة يأس جارفة، فتحملهم على مركب محبّتك وتمضي بهم، دون أن تتعرّف على هُويّاتهم، ودون أن تمرَّ على ظلماتهم السابقة، غير معني بماضيهم، إلّا بالقليل من أحزانهم التي تكفي للقليل من الدموع. ولكثرة ما تفرح بوجودهم، تظن أنّ فترة إقامتهم لن تنتهي. وإذا بك تجدهم يهربون على عجل، كأنّهم أتوا إليك في بدء الأمر بطرق غير شرعيّة، مقتحمين قانون القدر، هاربين فقط. ولذا لا يحقّ لهم بزيارة طويلة.. هم فقط.. عابرو سبيل.

في أحد الأيام.. حتماً سيرحلون.

ما عاد القلم ينفع، وما عادت الدموع تروي.

تظنّ نفسك الإنسان الأقوى، ومن ثَم، في لحظة صمت، تجد نفسك الأضعف.

تعيش من أجل غيرك، وأنت غير قادر على العيش من أجل نفسك.. أنت الأذكى، لكن ذكاءك غباء.. أنت الأقوى، لكن قوتك ضعف.. تهلك من أجل من تحب، تجد فيهم.. هلاكك.

انتصاراتهم، دوماً نتيجة.. هزائمك.

لذا لا بدّ من أن تكفّ عن العيش في دهاليز الخيبة ما داموا قد وجدوا قوّتهم في إضعافك. فلولا غباء السمكة، لما أخذ الصياد مجده. ولولا وفاء الكلب، لما تميّز الثعلب بمكره.

كم نحن أغبياء..

نمضي لا شيء معنا سوى حقائب مملوءة بأحزان الآخرين.. خيبات من حولنا، وأوجاع أصدقائنا، وآلام أهلنا، تقتل حقّنا في تجربة الحب، ويتملكنا عندها هاجس أوجاعهم، فنخاف أن نحب بدورنا.

نمضي.. فارغين.

نمضي بحقائب مقفلة فيها أحلامنا، غير دارين أنّنا تركنا المفاتيح مع الذين رحلوا.

ننتحل شخصية النعجة الغبيّة، في القرابين والتضحيات المجانيّة، على غفلة من أنّ الذين حولنا، ليسوا خرافاً مثلنا، بل نحن في سوق اللحامين.

أمّ تسجنك لفرط ما أحبّتك، وصديق يقيّدك لفرط ما أحب نفسه من خلالك،وحبيب يعطيك الحرية بعد أن أحببت طعم السجن به.

وتمضي، بل هم يمضون على جثمانك، حتى لا يبقى على جسدك سوى بصمات نعولهم.

قلتَ لي يومها بحزن:

ـ ما زلتُ أحبّها بجنون، لقد قلبَت حياتي رأساً على عقب.. ما عدتُ أنا.. لا أدري لماذا. كل ما أفعل هو من أجلها أو بسببها.. ولذا، ذهبت الأسبوع الماضي إلى منزلها، وحاولت مجدداً، لكنني حتى اليوم لم ألقَ أيّ جواب.

كانت رياح الشوق تقذف بك دوماً إليها.. أردتَ أن تكون معها.. أردتَ أن تكون حبيبها، أو حتى أي شيء من الأشياء التي تخصّها.. ربما سريرها، أو سجّادة صلاتها.. محفظتها، أو دفتر أشعارها..

كنّا ذلك المساء، وسط صقيع الطقس، جالسين في بيت أصبح اليوم للذكرى.. كنت أستمع إليك بحزنٍ، وكأنّ علاقةً ما تربطني بكل ما ترويه.

في مدن كمدننا، لا بدَّمن وجود الكثير من الصمت في الأحاديث الكسولة الشاهقة. ولذا عاد الصمت يلفّنا بوشاحه الفضفاض.

رحت أتساءل بغباء محقق يريد أن يبحث في قضية دون أدلّة تاريخية.. لماذا كل الأسى في قلبها رغم الحب الذي يتعرّش بقلبه؟ واتّخذت قراري.. ستحبّه حبّاً جمّاً، ستسجد في محرابه كما فعل طوال تلك السنين في محرابها..

مزّقت حجب الصمت وقلتَ لي:

ـ هل لك أن تأتي بالماء لأشرب؟

هممت من مكاني لأحضر الماء، قبل أن تضيف:

ـ علّه يكون الكوب الأخير في حياتي.

أربكتني تلك الجملة، ولم أفهم حقّاً معناها، فنظرت إليك صامتاً للحظات، ثم أحضرتُ لك كوباً من الماء، وعدتُ للجلوس..

عندك، كان الحب يونانياً، بغرابة أساطيره، وشراسة آلهته، وأوهام شعبه.. كنت تأتيه خلسةً كفارس على حصان، وكان يرميك بلؤم عاهرة، أغرتك بما فيه الكفاية لتتأكّد أنّك أصبحت في مقبرة ضحاياها.

كما أنّك أحببت إلهةً يونانية.. لعلّها (فينوس) إلهة الحب، أو إذا صحَّ القول، تلك الإلهة الوهم.. لعل قرابة تربطها بالإله (بعل)، إله المطر والصواعق والنار.

أليست هي التي أزهرت هذا الحب بمطر إغرائها، وراحت تصعقه بأصابع صمتها، ومن ثم تحرقه بلهيب حرمانها.

آه منها فينوسية.. بعلية!

مرّت دقائق كان خلالها كلّ منّا يعيش عالمه الخاص، أو ربما عالمنا المشترك صمتاً.. قمتَ عندها وأخذتَ ورقةً عن الطاولة، ثم قلماً، ورحتَ تكتب.

كنتُ أنظر إليك حينها بوجع وحزن ولست أدري ـ حتى الساعة ـ ما كان ذاك السر الذي به استطعتَ أن تشغل كلّ ما بي، في ليلة واحدة.

ولم أدرِ أنّك لست من كتب تلك الورقة، بل كان القدر يكتبها عبرك، لأنّ تلك الصفحة البيضاء، جاءت فجأةً في لقاء غيّر كلّ شيء، لتغير كل شيء.

عرفتُ في ما بعد أنَّ سرَّ تلك العلاقة المرضية التي ربطتني بك، كان. . ورقة.

ثمة فراق، نأتيه بملابس فاتنة، وعيون شاخصة. . نأتيه في بهجة الحب، وابتسامة اللقاء الأوّل. ثمة فراق وجد ليكون أجمل من كلّ اللقاءات، لأنّه وحده يحدّد جمال ذكرنا.

همستُ متسائلاً:

ـ ماذا تفعل؟

صمتّ لا تجيب.

عدتُ إلى السؤال:

ـ ما الذي تكتبه الآن وعقارب الساعة قد وثبت عن الواحدة ليلاً؟

لكنّك وللمرة الثانية، تجاهلت وجودي صامتاً. .

انتهيتَ من كتابتك، وقمت بطيّ الورقة ووضعتها إلى

جانبي.. كنتُ في أثناء تلك الأحداث الغريبة أعيش وسط معارك شيطانيّة، أصارع فاجعةً أصبحت جاهزةً وقيد التنفيذ.

كل ذلك كان بسيطاً أمام الصدمة التي سقطت عندما قلتَ:

ـ عندما أرحل من هنا، اقرأ هذه الرسالة.. واسمح للجميع بأن يقرأوها أيضاً.. واطلب لي المغفرة منهم.. هنيئاً لنا بالولادة الأولى.. هنيئاً لنا بالصداقة الأولى بين الحجر.. بين البشر..

يا للجنون..

لكأن شيئاً مات منك داخلي بمجرد تلك المقدمة الكارثة التي قلتها لي.. «هنيئاً لنا بالولادة الأولى.. هنيئاً لنا بالصداقة الأولى بين الحجر.. بين البشر..».

هنيئاً للفاجعة فقط، لأنّها وحدها تحصل على الأشياء وفق رغبتها، دون أيّ جهد.

هنيئاً للموت أيضاً.. ولأحلام لم تتحقق.. لن تتحقق.. لا تتحقق.

لعلّ قتل الأشياء قبل ولادتها، كان أعظم ما في شخصيتك.. أنت الذي أعدّ مسبقاً كلّ أشكال الفراق قبل موعد اللقاء، كيف لك أن تعود في زمنٍ آخر لتواصل أحلاماً قتلتها بملء إرادتك دون أي ذنب؟

أنت أيها العابث، الذي يتحرّش بالموت ويداعبه في كلّ

لحظة حياة، والذي ينجب الفراق في كلّ لحظة لقاء، كيف لك أن تعود دوماً متى شئت، وكأنّ كلّ من حولك لا شيء لهم.. سوى انتظارك؟!

تكون قد أدركت اليوم أنّك لم تعبث معنا يوم حاولت قتلنا.. كنت تعبث بنفسك فقط لا غير.

هناك.. في تلك الليلة.. أبكيتني.

ربما تعود أسباب ذعري لكوني لم أمرّ بهكذا موقف في أوقات سابقةلأنّني لم أكن مستعداً لخسارتك..

ثمّة أناس، تلتقيهم في لحظة خسارتك لهم، فتتعلّق بهم كما لم تتعلّق بأحد قبلهم، تعيش آلامهم.. تشاركهم أوجاعهم.. وفي كلّ لحظة تراهم فيها، تظن أنّك لن تراهم بعدها يوماً.

كالأساطير يصطادونك، أو ربما يلتبسونك حد المرض والجنون.

يتحكمون بكل تقلباتك العقلية، والقدرية منها.

دون أن أتألم عنك، وأبكي من أجلك حقّاً، كان عليّ أن أدّعي أنَّ كلّ ذلك حصل. في التمثيل، يمكنك أن تعيش حياة الآخرين دون أن تدفع الثمن..

إذا أردتُ اليوم أن أقف لأشرح الخوف الذي تملّكني ذلك المساء دون أن أصاب بأي وعكة نفسية.. سأفشل!

كدتُ أسألك: هل ستنتحر؟! لكنّني بذكاء:

ـ ستنام عندي الليلة.

أجبتني:

ـ لا.. عليّ أن أعود إلى المنزل.

مجدّداً، كدت أقول لك: لا، لن أدعك تنتحر. لكنني حاولت بطريقة أخرى:

ـ هيا.. فقد تأخّر الوقت، لا لزوم للعودة.

حاولتُ كثيراً، لكنّك كنت مُصرّاً على الذهاب.

في بلاد عربية اعتادت على ذرف الدماء لم نتعوّد على البكاء. في شرقنا، لا نرضى إلا بأدوار البطولات.. خلقنا لنكون تماثيل صمّاء.. بهائم لا نشعرإلاّ داخل السرير.. ورثنا من الماضي ورجال الجاهلية صحراوية عنترة، وعظمة كليوبترا.

نضرم الحرائق، ونخوض المعارك، تحت شعاري وهمٍ، اسمهما الحرية والحب. نموت من أجل قضايا وطنيّة، تحت اسم العروبة والحرية. لكنها ليست هذه أرض الحرية، ولا تستقبل الأحرار.. إنها أرض الادّعاءات فقط.

كليوبترا.. تلك التي ننسبها إلى الرّومنسيّة، والتي ادَّعت حبّ الكثير.. ولا سيّما آخرهم ماركوس أنطونيوس.. كليوبترا التي رفضت أن تخضع وتشهد سقوط عهدها، فانتحرت خوفاً من الاندثار..

ومن ثَم نقول.. رحلت عن هذه الدنيا وتركتها لأصحابها، واهبةً نفسها شرف الشهادة في سبيل الحب..

إذاً.. كلّ شرقي كليوبترا.. كلّنا كليوبترات.

أخذتَ الورقة من جانبي.. توجّهت نحو الموقد.. جلستَ أمام النار، ورحت تشعل الورقة ببطء. لمع لهيب النار في عينيك المتأجّجة، وبرزت إشارات الموت في الدخان المتصاعد.

سألتكَ:

ـ هل تخبرني ما كتبت؟

أجبت بتمرّد:

ـ كلا..

صفَعتني موجة كآبة، وراحت تفتفتني حزيناً تائهاً.. لا أدري شيئاً.. ولا أريد أن أصدّق أي شيء. كانت فقط اللّسعات تركض في عقلي وتخمن ما قد يحصل قريباً.

في تلك الليلة، علمنا أكثر من الكثير، ورغم ذلك، كانت حافلةً بالغموض والحقائق المستترة..

فنحن كلّما ازددنا معرفةً بالأشياء، ازدادت الأشياء غموضاً.

قلت متحضّراً للمغادرة:

ـ سأذهب الآن.. هل توصيني بشيء؟

مشيتُ معك إلى الباب وكأنني أحملك إلى القبر.. إلى مثواك الأخير. عندها وضعت يدي على كتفكقائلاً بمزيج من الأمل والخيبة:

ـ نعم.. أريد أن أراك في الغد..

أغلقت الباب خلفك، محاولاً أن أُغلقه على كل الشبهات.

لكنّني عبثاً كنت أصارع الموت، بل كان هو يصارعني، ويرميني من مكان إلى آخر. أتحدّى القدر ليلاً، لأجدني.. على الأقل.. أنهمر دمعاً.

ما هو هذا القدر الذي جرفني تلك الليلة، لأدخل على قصّة.. وَصَلَتْ إلى فصل فجيعتها.

وكيف لسهرة دامت ساعات، وورقة أكلتها النيران آنذاك، أن تتحكّم بكلّ تقلّباتي العاطفيّة منذ سنوات حتى اليوم؟

ما زلتُ أذكر كل ما حصل في تلك الليلة لحظة بلحظة.. ما زالت أصواتنا وهمساتنا تدوّي في أذني، ومخاوفنا لا تبرح مخيّلتي..

ما زلتُ أذكر كيف حاولت الاتصال بك فور مغادرتك مراراً ولكنك لم تجب، وكيف خرجت أفتش عنكَ.

ذهبت إلى منزلكَ.. لم أجدك.

مشيت في الشوارع أفتش عن أثر لك.. علّني أجدك في زاوية ما تبكي حزيناً.. أطارد الموت بين الأمطار المنهمرة، أبحث عن خيط رفيع في الضباب.. فلا أجده..

عدت إلى منزلي كسير الخاطر، لا أعرف الفرق بين الحقيقة والخيال، لا أجد من يمدُّ يد العون لأصل إلى شعاع من النور. استلقيت على سريري دون أن أبدل ملابسي، وحتى منتعلاً حذائي.

كانت حوالى الخامسة فجراً.

وكنتُ غارقاً في حلم مزعجٍ، عندما أيقظتني طرقة قوية على الباب.. للوهلة الأولى، ظننتها تابعةً لذلك الحلم.. وكأن أحدهم جاء لينبئني بخبر الموت الذي عرفته سلفاً.. فانتفضت من مكاني واقفاً، حتى سمعت صوتها:

ـ افتح.. افتح هذه أنا.

في الواقع لم أدرك الصوت أوّلاً، ذاك لتضارب الأحداث والأوهام معاً في اللحظة نفسها.. توجهت مسرعاً نحو الباب لأفتحه، وقد نسيت أن أنير الضوء. لكنّني رغم ذلك، تمكّنت من تمييز ملامحها من النظرة الأولى، رغم أنّني لم أرَ إلاّ شبحها الصامت. قلت لها بلطف صدمة:

ـ آه، مهى؟!

ـ نعم، هذه أنا، أتسمح لي بالدخول؟

لم أتوقّع مجيئها، ولم أعرف يوماً سبب زيارتها ذلك الصباح.. في الواقع، لقد عرفت السبب في ما بعد، لكنني لن أذكره هنا.. هذا كتاب للوفاء والإخلاص فقط.

أجبتها:

ـ من غير شك.. تفضّلي، تفضّلي.

قالت بنبرة لطيفة:

ـ أدهشني أنّك لم تعرفني فور سماعك صوتي عند وصولي.

ـ للأسف لم أفعل. كنت حينها أعيش أحداث كابوس مؤلم.

فعلّقت متفاجئةً:

ـ حقّاً؟ وما هو؟

لم أشأ أن أجيبها، وهي سبب تلك الأحداث الأليمة.

كانت زائرتي ترتدي معطفاً طويلاً من الجوخ، أسود اللون. وضعت على رأسها قبّعةً بيضاء من النوع نفسه، وزيّن عنقها شال حريري رائع.

جلسَت مهى أمامي على كرسيّ حيث جلستَ أنت منذ ساعات.. لم ترفع رأسها إليَّ، كان يبدو عليها الخجل، وفي عينيها لهفة الاعتراف.. أيّ اعتراف؟ لم أدرِ.. نظرتُ إليها طويلاً وأنتَ تجول في خاطري.. أما زلتَ صديق

القلب والروح الصامتة، أم أصبحتَ جثةً باردةً على أحد الأرصفة؟

قالت:

ـ سمعتُ على الراديو وأنا في طريقي إلى هنا، أنّ أحدهم قام بالانتحار.. ولكنّه لم يعرف بعد، يبدو مجهول الهوية.

هل كانت تلك محاولةً لبدء حديثاً آخر، أم أكانت هدف حديثها؟ ولكن لماذا ستأتي إلى هنا هذه الليلة، لتخبرني أشياء، لا تدري أنّني عرفتها منذ لحظات؟

صدمتُ عندها وتجمَّد الدم في عروقي. تقطَّب حاجباي، وأخذت شفتاي ترتجفان، وعامت عيناي غضباً وحزناً.. انهمرت دمعة على خدي، ولبثت دقائق لا أحرك ساكناً.

أما هي.. فقد صمتت لردّ فعلي،دون أن تعلم عمّا دار داخلي.. حاولَت أن تعيد الكلام قائلةً:

ـ ما بك؟

فهمست بلؤم:

ـ اخرجي.

قالت متفاجئةً:

ـ ماذا دهاك؟ قل لي ما الذي حصل؟

فانتفضت مسرعاً نحو الباب صارخاً:

ـ هيا، اخرجي.

حنت رأسها في مذلّة وخرجت..

لبثتُ واقفاً بالباب، أراقبها.. تمشي حزينةً..تبتعد!

للانتحار فلسفة فوق منطقية، وبعد جمالي محض، يُختصر بسؤال واحد جوابه كلمة! من كان الأجدر بالجريمة؟

أسكّين انغمست بدمك، أم رصاصة اخترقت عنقك؟

كنت دائم الاعتقاد أن للأداة أهمية في الجريمة أيضاً..فهي، كما كلّ الألوان في الرسم، وكلّ الخطوات في الرقص، تحدّد فنّ جريمتنا..ولذا عليك دوماً أن تختار الأداة التي تلائم الجسد وطبيعة الموقف.

فإذا كان الجسد جميلاً ونحيفاً، فمن حقّه أن يعلّق على مشنقة وذلك لطبيعة الموقف. ولو أردت أن تبدع بالإجرام، قد تتفنّن بسكين أو من علّو شاهق للوحة.. أما إذا استعجلت الرحيل، فرصاصة واحدة تكفي.

بأيّ طريقة توّجتَ نفسكَ آخر تتويج؟

أنتَ الذي لم تنخلع عن عرشك إلا من أجلها.. أراه الآن انخلع عنك وأخلعك كل ما تملك، حتى عقلك!

أيعقل حقاً؟

هل تزفّ المآذن خبر فاجعتك؟ ويركع المولى ليصلّي على جثمانك؟

قطعاً.. فهو للأسف لن يفعل.

عندهم لا تملك أيّ قيمة على الإطلاق.. أنت الآن في عداد الكفّار لأنّك لم تهدر دماءك من أجل أرض وقضية..بل هدرتها من أجل فتاة كانت لك وطناً.

وطناً سكنته.. تخلّى عنك.

عدت إليه.. رفضك.

أحببته.. كرهك.

عشت من أجله.. قتلك.

حتى الأوطان تخوننا.. هي الأوطان وحدها تشرّدنا، وفي النهاية تقرر عنّا شهادتنا.

أنتَ الآن شهيد من نوع آخر.. لا تحزن يا رجل، سأصلّي عليك في غيبتك.. سأكون شيخ غدك، وسأحقق أحلام مستقبلك.. لا تبحث عن أيدٍ تحملك، سأكون أنا نعشك.

«الميت هو الذي ما عاد بإمكانك أن تعطيه شيئاً، ولكن ما زال بإمكانه، حتى في الغياب، أن يعطيك ما شاء من الألم».

لماذا إذاً استفزني في الصباح التالي دفتر ألحان كنتَ قد تركته في منزلي ذات يوم وأرعبني حتى إنني أردت أن أرميه أو أحرقه فوراً.

جلست أمامه وأخذت أتفقده ببطء.أوقفتني جملةً بين

الأسطر في غصون نظرة، أتت كحدس من عصر حضارة كَتبت التاريخ مسبقاً: حبيبتي، أنا لا أعيش إلا بك. مرّت سنوات على الانتظار. أن ترفضيني مرة أخرى.. أموت!

فلا أكثر وجعاً من الأشياء التي يتركها الأموات عند رحيلهم.

أخذتُ أسطوانةً وضعت داخل الدفتر، وتوجّهت نحو المذياع، وعلى صوت شبه منخفض استمعتُ إلى معزوفتك «سفر».

أحببتَ السفر إذاً..

ولكن، كان بإمكانكَ اختيار وسائل عدة.. كان بإمكانكَ السفر على مقعد طائرة أو على متن باخرة. لماذا اخترتَ السفر على الأكتاف؟

كان بإمكانكَ اختيار مدن جميلة، مدن صاخبة لا تنطفئ. لماذا خضعتَ لصندوق؟

دون أي تخطيط مسبق، أو دراسة لعواقب ما سأقدم عليه طلبت سائق سيارة الأجرة، وارتديت ملابسي، ورحت أنتظر.. علّني أنسى.

أقفلت الهاتف وقررت أن أبقى في بيروت لعدة أيام.

ها أنا، كاتب في الثامنة عشرة من العمر، أجلس في السيارة خلف رجل، نحت العمر عليه أكثر من ثماني عشرة مرة.

سألني أبو جعفر، بعد التصبيح والسلام:

ـ إلى أين تريد أن تذهب؟

ـ توجَّه نحو بيروت.

ثم أضفت:

ـ لو سمحت.

انطلقت بنا السيارة، وعلى غير العادة، لم أطلب منه أن يضع أغاني فيروز على المذياع. سألني:

ـ ألا تريد أن تستمع إلى شيء؟

ـ كلا.. شكراً أرغب في القراءة.

لم أقتنع يوماً بأنّ القراءة على الطريق تصيب بالدوار. لعلّ ذلك وهم خلقناه نحن العرب، لنبرّر بُعدنا التام عن المطالعة، فلم يحدث أن شهدت فيلماً يتعلّق بالغربيين، إلا وكان كلّ الركاب في عربات المترو وسيارات التاكسي يقرأون كتاباً وضع في أيديهم. عكس ما عندنا هنا، إذ إنّك تتفاجأ عندما ترى أحداًيقرأفي كتاب.

في الواقع، منذ يومين، كنت في المكتبة أشتري كتاب «ذاكرة الجسد» للروائية أحلام مستغانمي، لأنّني أردت أن أهديه إلى أحد الأصدقاء، فأنا منذ أن قرأت ذلك الكتاب، لم يحدث أنّني أردت أن أهدي أحداً شيئاً إلا وأهديته إيّاه. وعندما سألت البائع عن ديوان «خطوات أنثى» للشاعرة ردينة

الفيلالي راح يضحك مستهزئاً، ومتعجباً لفضولي الكبير. بعد خروجي من تلك المكتبةقرّرت أن لا أدخلها مجدداً.

عادةً، كان أبو جعفر يحدّثني بمواضيع كثيرة عندما نكون في السيارة، طبعاً المواضيع التي تعوّدنا عليها جميعاً، كالأخبار المحليّة،وخصوصاً السياسيّة منها. أمّا اليوم،فلأنّني كنت أقرأ، ظلَّ طوال الوقت صامتاً.

تذكّرت أنّ عليّ أن أقوم باتّصال ضروري لشركة الإنتاج الموسيقيّة الكبرى في بيروت، ذلك لأنّها سبب زيارتي الأساسيّة للعاصمة. طلبت المكتب، وكنت محظوظاً يومها، لأنّه كان هناك موعد يمكنني أن أجتمع فيه معهم في اليوم نفسه. كان ذلك في الثالثة من بعد الظهر.

ساعتان إلى بيروت.. لم أقرأ حرفاً.

وصلنا حوالى الثانية عشرة ظهراً، وقرّرت حينها أن أقوم بزيارة خالي الذي يسكن في إحدى ضواحي المدينة، انتظاراً لموعد الاجتماع. كانت زحمة السير هائلة، وكان المكان الذي يسكن فيه، كأحياء البؤس التي لم تعد موجودةً إلا في الأفلام؛ طرقات ضيّقة، وعمران غير شرعي... صراخ من هنا وهناك.

وصلت إلى الشارع، وكان خالي جالساً أمام دكانه.. في النظرة الأولى، خلته رجلاً أوروبياً، بتلك القبعة المستديرة

التي ارتداها الرجال في السابق، والنظارات الشمسية التي أعطته طابعاً شامخاً ومميزاً.

فرح كثيراً لزيارتي، ولطالما تساءلت: كيف أمكن لرجل خدم كضابط في الدولة طوال حياته، أن يعيش في هذه الأحياء بعد تقاعده.. لعلّه تقاعد اليوم عن الحياة وقرّر أن يجلس في دكان إلى جانب منزله، ليتسلّى قليلاً خلال النهار، وينتظر آخر الشهر ليأخذ راتباً من الدولة، باعتبار أنّه كان أحد رجالها، لا أدري ماذا يفعل به.

ما إن جلست على الكرسي أمامه، وإذ بالصراخ يعلو من المبنى المجاور. كانت امرأتان، أو في الواقع عجوزان، تتعاركان من أجل من سيدفع تكلفة تنظيف الدرج ذلك الأسبوع. واستطعت أن ألتقط من هذا الصراخ، أنّ تلك التكلفة كانت ستة آلاف ليرة لبنانية. وجاءت واحدة منهما تشكو لخالي، وتطلب منه أن يتكلّم مع زوج الأخرى ليحلّ هذا النزاع.

كنت أطلب السائق الذي قلت له أن يذهب حيث يشاء حتى أنتهي من زيارتي، عندما أتت زوجة خالي بسندويشة زعتر وعلبة من الأدوية. قال لي:

ـ لا تخف.. هذه الوجبة الأولى فقط.

لم يكن يقصد الطعام، بل الدواء. راح يأخذها حبّةً بعد أخرى.

يا إلهي.. ستّ عشرة حبّة دواء. ما هذا الجنون؟ أيّ مرض هذا، أو أيّ أمراض هذه؟ رحت أسخر من نفسي، ومن أوهامي أنا ومن هم في عمري ما دمنا سننتهي بدكان، وستة عشر نوعاً من الأدوية والمسكنات.

بعد قليلٍ من الوقت، وقف خالي وتوجّه إلى المحل المجاور، وكان فيه رجل يشتغل في تنجيد الغرف أو ما شابه. عاد، وجلس قائلاً:

ـ لقد مرَّ شهر تقريباً، وأنا أطلب منه أن ينجّد تلك الكنبة. لعنة الله على هذا الزمان، مات الصدق والشرف مع أصحابه.

ابتسمت وكأنّني أوافقه الرأي. ثم أخبرني عن قصة قرأها في درس اللغة العربية في المدرسة منذ ستّين سنة، وما زال يذكرها كما هي. وتروي القصة عن ثعلب يلاحق الدجاجة من مكانٍ إلى آخر، حتى صعدت إلى الشجرة، فراح يغريها بأقوال كاذبة، وبأنّه يريد أن يصادقها حتى تنزل عن الشجرة.

ثم أضاف:

ـ في الواقع يا خالي.. لقد صحَّ قول الثعلب على هذه الأيام، لقد تصادقت الدجاجة مع الثعالب، وتصادق النمر والحمار، كما تصادق المخلص والغدّار.

رحت أضحك معه كي أواسيه ذلك اليوم، اليوم الذي لم أره بعده.

كان الاجتماع في شركة الإنتاج، أهم ما حصل يومها.

لا أدري لماذا قررت أن أغيّر رأيي من تسليم مهى تلك الأسطوانة، إلى تسليمها لشركة إنتاج موسيقيّة.

لم أهيّئ نفسي لما سأقوله في الشركة، لكنّني أخبرتها عن سبب زيارتي، وعن نيّتي في نشر تلك المعزوفات تكريماً لصديق.

ردّت:

- في الواقع، لا يمكننا أن نتصرّف دون إذن من صاحب هذه المعزوفات. ولكن، على كل حال، دعنا نعرضها على اللجنة، ثم نرى ما يحدث.

جاء جوابها صاعقاً.. أيَّ إذنٍ تريد وما عاد هناك من صاحب لهذه المعزوفات؟ كيف سأقول لها إنّه انتحر، ولا أريد أن أنشرها سوى إكرام لجسده؟ كيف سأقول لها إنّها أصبحت معزوفات يتيمة، حرمت من أبوّتها، لأنّ أمّها هجرتها!

غادرت الشركة كما أتيتها، وقد تركت شيئاً وحيداً فيها.. أسطوانة يتيمة.

حان لأحلامنا أن تنضج، ولأمانينا أن تبلغ سن رشدها..

حان لوهمنا أن يستيقظ، ولغباء طفولتنا أن يرحل..

حان لنا أن نضحك ونرقص سخرية من الماضي كما لم يعد شيء يعنينا..

ولجسد ذاكرتنا أن يخلع عنه ثوب العذوبة ويثمل في الحياة مستهزئاً..

حان لنا أن ننسى..

أو لعلّه.. لم يحن شيء بعد!

مرّت ثلاثة أيام اقتنعت خلالها بواقع الموت المحتوم.

ذلك الموت الذي علينا أن نتقبّله كما الولادة، وكما الحياة.. علينا أن نعترف به، كما نعترف باللقاءات، والوداعات.

الموت الذي كما الحب.. لا يعرف الانتظار.

كم هما متشابهان إذاً؟! بإضرام الحرائق، وبعثرتهما لرماد الماضي..

الموت الذي كما الحب.. نذهب إليه عراة.

بفخرمن شيء ما عاد يعنيه.. وعظمة من تكبّر على كل شيء.. حتى نفسه، ليصبح خارج الوقت، وحدها الخيبة واللهفة زمنه.

مرّت ثلاثة أيام ما تمكنتُ خلالها أن أصرف فكري عن خسارة أعزّ صديق لي.. عن صداقة ماتت في يوم ولادتها.

ولم أستطع أن أتوقف عن التفكير في مهى وزيارتها الغريبة الحافلة بالأسرار.

إذاً.. في اليوم الرابع من شهر الانتحار، في السنة الأولى بتوقيت الخيبة،بينما استعدت عقلي، والقليل من أفكاري، بينما كنتُ أمشي في الشوارع وحيداً، سمعتُ أحدهم يناديني..

التفتُّ..

لم أصدّق ما رأت عيناي..

للوهلة الأولى، ظننتُ أنّني أحلم، لكنّني كنتُ بكامل وعيي. ركضتُ عندها.. ولشدّة صدمتي، لم يكن رد فعلي طبيعيّاً.

وقفتُ أمامك.. وقلتُ لك:

ـ كيف حالك؟

أجبتني:

ـ ها أنا في أتمّ صحتي، أخبرني عن حالكَ انتَ.

أجبتكَ وأنا أكتشف أنه يحدث لنا أن نغرق بشبر ماء، وأن نستنكر كل من حولنا، ونصدق كذبتنا الأولى مهما برزت أمامنا الضمائر الظاهرة والأحرف غير المقدرة على أوهامنا للتعذر، أو أحلامنا للثقل:

ـ أنا.. لا أعرف كيف انقضت الأيام بعد مغادرتك تلك الليلة.. عشت بين الوهم والحقيقة.. بين الخيبة والأمل.. ظننت أنكَ...

فضحكتَ عندها بصوت عال، قاطعتني:

ـ كلا . . فقد أجّلت ذلك إلى موعدٍ لاحق.

أنت الذي وصل بعشقه حد اللضحك بتهكم ساخراً من الحياة، كان لا بدّ لي ألاأرسم أمامك خيبتي وأتركك لتملأ الفراغات وفق رغبتك وأحلامك غير المتحققة. كان لا بدّ لي ألا أسلّمك قلمي وأدعك تعبث بصفحات كتاباتي.

سعدت لعودتك ذلك اليوم.. وربما، ما كان عليّ أن أسعد.

كيف لصداقة، ولدت في ليلة، وماتت بسرعة لثلاث ليالٍ أخرى، أن تعيش في ما بعد لتكون صداقةً طبيعيّة؟!

عادةً. . نكتب عن قصصنا عندما يزورنا أبطال ذاكرتنا على غفلة من قدر بعدما ننتهي منها.. عندما يمكننا أن نلمس جراحاً خاطها الزمان دون أن نتألم. .أو نتمكن من المرور فوق صفحات العمر دون أن نفتح الصناديق المدفونة.. دون أن ننظر إلى الجزء الآخر غير الموجود لصورة نصف محروقة..

عادةً. . نكتب عندما يعطينا القلم حبراً يبس سخريةً من أوهام الماضي..

عندما تتحوّل صرخات الذاكرة إلى صدى ذكرى..

يومها فقط يمكننا أن نكتب..

أمّا اليوم.. هوذا القلم ينزف وجعاً ما زال مختبئاً بين جدران الذاكرة، لم يتعلّم بعد كيف يُحترف النسيان.. يكتب

قصةً قبل أن تنتهي.. أو أقصد، أكتب قصةًقد لا تنتهي.. فعذراً أيّتها الجراح لأنّني أقطع خيوطك من جديد.. تحمّلي الوجع وابتهجي.. فلا أجمل من الألم الذي يصرخ أحرفاً على صفحات.

قليل من الألم سادتي.. قليل من الدموع وننتهي.

غداً ننتهي.. بعد يوم.. بعد عمرٍ ننتهي.

حتماً.. بعد كتاب.. ننتهي.

نبضات

كنّا رجلين متواضعين كستهما تفاصيل الفوقية.

كان لكل منّا صفات خاصة تميزه عن كل إنسان. . وكنّانحمل عقائدنا ومبادئنا بفخر دون أن ننحني يوماً.

كان كلٌّ منا جميلاً بفنّه وثقافته. . بإخلاصه ووفائه. . بخيباته وهزائمه. . بحزنه وجنونه. . بسعادته المسروقة من القدر. . بانتصاراته ونجاحاته.

وما زلت حتى الآن لا أعرف من منّا بالنهاية سيكون بطل قصة لم أقرر يوماً كتابتها.

أحياناً، نحتاج إلى العاطفة كما يحتاج آخرون لحظة نزيف إلى الدماء.

ما الفرق بين حاجتنا إلى العاطفة وحاجتنا إلى الدماء؟ أليس بفقدان أيّ منهما سنسلك الطريق إلى هلاكنا؟

ما هو هذا الزمان الذي أصبحنا فيه نحتاج إلى المستوصفات العشقية أكثر من حاجتنا إلى أيّ شيء سواها.

هي ذي المستشفيات العاطفية لا تفرغ من مرضاها. . يأتونها إلى كل فروعها من الرسم والرقص والنحت. . كما العزف والكتابة أيضاً.

الفن.. مستوصف عاطفي.

لنشكر إذاً تلك الأدوات الإسعافية.. تلك الأوتار المسكّنة، والألوان المخدِّرة.. ذاك «البنادول» الحبري.

هل كنت مستوصفك؟

قلت لك ذات يوم:

- لا تنتظر حبيباً قد سبق ورحل.. إنّه مغامر من الدرجة الأولى.. أدمن على خطر المرتفعات، وأصبح التحليق شغفه الوحيد، فهو دوماً على ترحالٍ.. سيزور كل يوم مدينة كي يغادرها إلى أخرى بعد أيام.. لا تربط قدرك بالحلم الصغبر -المدينة التي يشتاقها بعد زمن.. لا ترضى بحبيب أعلنك مصيفاً لعاطفته ومزلجاً لشهوته.. لا تؤمن بإنسان غادرك لحظة، بعد أن اتخذ منك.. موطناً أبدياً له.

كنت أتساءل دوماً: لماذا يموت الفنانون في اللحظة التي يفعلون فيها الأشياء التي يحبّونها أكثر؟!

عندما مات الملحن المصري «زكريا أحمد»، كان جالساً في بيته، وقد أدار المذياع ليستمع إلى اللحن الذي وضعه لأمّ كلثوم في أغنية (هو صحيح الهوى غلاب). داهمته نوبة حادّة،ليغلبه الموت فورها.

أليس مضحكاً؟

أما السؤال الأكثر وجعاً،فكان: لماذا يموت معظمهم انتحاراً؟

كالممثل اللبناني «الياس رزق»، والذي كانت حروف اسمه ملازمةً لحياته، وإذ به يطلق رصاصةً في رأسه، لينتحر يأساً من هموم الدنيا ومتاعبها. والرسام الشهير«فان غوخ» الذي قطع أذنيه ليهديهما إلى حبيبته. . . والممثلة المصرية «سعاد حسني». ألم يموتوا جميعاً انتحاراً؟

هل يقتل الفنان نفسه بالأدوات التي صنعها، وهي نفسها التي استعملها أكثر في حياته؟

ألهذا قلت لي ذات يوم مازحاً بأنّك ستنتحر شنقاً بأوتار عود، ومن ثَم ابتسمت لتضيف:

ـ صديقي. . لقد انتحرتُ حباً.

في الانتحار فن أيضاً. ما دام الموت شيئاً عادياً، يتساوى فيه الإنسان العادي مع إنسان فوق العادة، يحقّ للفنانين الذين عاشوا حياةً غير عادية، أن يموتوا موتاً غير عادي.

كيف سأموت أنا إذاً؟ هل سأموت في كتاب، أم سأغرز فرشاة رسم في قلبي؟ أم سأنزع عنقي بقلم لانتحر بطلقة قلمية؟!

كنت قد نسيت أمر تلك الأسطوانة لانشغالي بك حياً. . تلقّيت بعد أيام اتصالاً من شركة الإنتاج، طالبين مني مقابلة العازف. . كان يبدو في صوت المتّصل بهجة ما، أو كأنّه كان يخفي فرحةً مفاجئة.

تمكّنت من إقناعك بالذهاب إلى ذلك الاجتماع، تماماً كما تمكّنت من تبرير ذهابي إلى الشركة لإعطائهم الأسطوانة في بادىء الأمر.

حصلت على الجائزة الموسيقية الذهبية لتلك السنة، وتمكنت من نشر أول ألبوم لك.

كنّا، أنا وأنتَ نعرف فنوناً كثيرةً.

أنا.. عرفت فنوناً كثيرةً، كالرقص والرسم والكتابة.

أنت أيضاً، عرفت فنوناً كثيرةً، كالموسيقى.. كفنّ الحب وفنّ الذاكرة.

كنّا دوماً حريصين على فنّ قول الأشياء. ففي الواقع، كما أن للموسيقى والرسم والكتابة فنّاً.. للكلام فنّ أيضاً.

تسألني قبل أن تبتسم بخيبة:

ـ ما رأيك.. أي اسم سأطلق على هذا الألبوم؟

تتوّقع منّي إجابة.. فأصمت.

تقول:

- مهى؟!

- كلا.

- لماذا؟

من غيرتي على اسمها.. أصمت مجدّداً.

ثم أحاول أن أغيّر الموضوع.. فأسألك:

- كيف حال صحّتك مؤخراً؟!

تشعل سيجارة:

- كلّنا قوافل تنتظر الرحيل.

أردّ بشيء من العصبية:

- لماذا تستعجل الموت بالذات؟! التدخين يضرّ بصحّتك..

تضحك:

- أمثالي يستعجلون كل شيء.. فالحياة لدينا احتمال.

أتعجّب لإجابة لم أتوقعها قبل أن تسألني وعلى وجهك علامات شكّ وحذر:

- لماذا يعنيك أمر مرضي إلى هذا الحدّ؟! أهو حتميّ لنجاح روايتك، أم لرسم قدرك؟!

يمتقع وجهي قهراً وخوفاً، تضحك:

- ما أطرف الموت! إنه نهاية الميت وحده.. أما للآخرين.. فهو لكل منهم بداية!

بالفطرة.. ندمن التحرّش بالموت، ونشتهيه.. ولو حتى من بعيد..

نمرّ بمحاذاته، دون أن نلمسه تماماً، بل نبقى فقط على تلك المسافة مدروسة لنغريه، ونوهمه.. كم نحن نحتاجه!

***

يمرّ صباح آخر..

اشتريت باقة ورد بيضاء وتلاقت أبصارنا.. والآن فقط تجتاحني رغبة في الكلام عمّا قد تحدثه الحياة في غضون نظرة.

خلف الباب وقفت أنتظرها كي تدعوني للدخول وكان في نظراتها بحر كاذب الهدوء يخفي في أموجه حقداً وكأنه لا ينسى أبداً.

اعتذرت لها عمّا حصل ذلك المساء دون أي تبريرات إضافية.. تحدثنا يومها عن أشياء كثيرة وعدنا صديقين كما لم نكن من قبل.

ترى.. عندما ذهبت لتحضير القهوة ولوضع الورود بزجاجة تليق بها.. كم من الوقت بقيَت هناك؟!

لست أدري..

وهل من أفكار جرفت أنوثتها لتبحث عن سبب زيارتي الفجائية يومها؟!

فأنا أيضاً لست أدري، ولأمر لا يعنيني على أي حال!

كلما التقيتها، راودني شعور غريب.. شعور دفعني نحو الكلام. سألتها ذات مساء دون مقدمات:

ـ مهى.. هل أحببتِ يوماً؟

ـ كلا، ليس بعد.

لم تعلم حينها أنّي جئتها لأتحدث معها عن أشياء ما كانت يوماً في حسبانها. استطردت متفاجئاً:

ـ غريب.. كيف لنا أن نمتنع عن حب أحدهم رغم يقيننا أنّهم متيّمون بنا.. لطالما تساءلت: كيف يشعر أولئك الذين يرفضون من أحبّهن رغم محاولات كثيرة.

لم تدع لشعورها أي سبيل في حديثنا.. فتجاهلت داخلها وكأنّها ليست من المتّهمين، وأجابتني باستنكار:

ـ بالذنب، ربما..

فعلّقت متسرّعاً:

ـ أنتِ.. هل تشعرين بالذنب؟

صمتت لحظتها مطوّلاً، وكأنها تشاهد شريطاً كبيراً لحياتها، وكأنها جلست من جديد تتذكر كلاًّ منهم، رجلاً.. رجلاً.

وكل الأحلام التي ماتت عند عشقها، حلماً.. حلماً.

بكبرياء وثقة:

ـ لا.. لن أشعر بالذنب عند رفض كلّ رجل، فلست مجبرةً على عشق الجميع.

ـ لست مجبرةً.. ولكن هذا ليس الغرض من سؤالي. ألم ترفضي أن تعطي أحدهم فرصة بطولة، وذلك جعلك تشعرين بالذنب؟

ـ في الواقع.. نعم، حصل، وثلاث مرّات.

عندئذٍ استدركتُ أن ضحية تلك المرات الثلاث كانت أنتَ.. وبينما لمع في ذهني نجم الأمل، قلتُ لها:

ـ ألا تفكّرين في إعطائه فرصة أخرى؟

شعرت حينها بغرابة الموقف، وأيقنت أن لحديثي هدفاً أسمى من المعرفة فقط، فسألتني فوراً ما إذا كان حديثي يتعلّق بك...

إذاً.. شعرَت بالذنب.

لطالما اعتقدت أن في الشعور بالذنب قصاصنا الأبدي.

لعلها كانت على أتم العلم منذ اليوم الأوّل بحبكَ لها.. ومرضكَ بها. ولذا، لم تحبك. كان عليك أن تحقد عليها.. كان عليك أن تتخلّى عنها.

أليست النساء هن اللائي يرفضنك يوم تزحف إليهن، ويركعن أمامك يوم تستقيم على قدميك؟

لكنك مع كل دقة قلب ازددت وهماً وحباً.. كلّما حاولت الوقوف، كانت شراسة عينيها ترميك أرضاً، وكانت القوانين الطبيعيّة للحنين تتحرّك كلّها دفعةً واحدة.. كلّما ادَّعيت نسيانها، هبَّت أعاصير الشوق، ورقصت زلازل الذاكرة.

لا أبشع من الفاجعة العشقية!

قلتُ لها:

ـ نعم.. كل ما في هذا الحديث يتعلّق بصديقي..

ولكنه لا يعلم أنني هنا وأكلّمك عن هذا الموضوع، ولن يعلم أبداً.

كانت تلك المرة الوحيدة التي كذبت بها على مهى في حياتي. لم تعرف ذلك أبداً، إلا إذا وصلت إلى هذه الورقة من صفحاتي.. فأنتَ كنت على علمٍ بكلّ حرفٍ نطقته شفتانا في ذلك اللقاء وما رافقه من لقاءات.

في الحياة علينا أن نكذب أحياناً بغية معرفة الحق،ولذا.. أنا أشكر الله ألف شكرٍ، لأنّه يوم وضع القوانين الناموسية، لم يكتفِ بالحسنات فقط، إنما وضع الخطايا لخدمتنا أيضاً. حتماً، كان يدري أنّ على أرض كهذه، لا بدَّ من الخطايا، فنحن بحاجة إلى كلّ الأشياء؛ فكما أنّنا بحاجة إلى الحب والوفاء والإخلاص، أيضاً، في المقابل، نحتاج إلى شيء من الكراهية والغدر والخيانة.

وأضفتُ:

ـ هل تريدينني أن أتابع إذاً؟

ـ نعم.

مجدّداً:

ـ هل تشعرين بالذنب؟

مجدداً أنكرت:

ـ كلا.

أردفت بتعجب:

ـ ولكن، إذا كنت حقاً من الناس الذين يشعرون، عليك أن تشعري بكثير من الذنب، وسأخبرك. . .

فتحت فمها، إمّا في دهشة ساخرة، وإمّا في حيرة. فوددت أن أستغلّ ارتباكها لأفوز بقلبها، وأضفت:

ـ قد تذكرين عندما أتى إليك آخر مرَّة قائلاً «أحبك». . فهو حتى الآن، ما زال متيَّماً بك، وعلى هذه الحال سيبقى إلى الأبد.

سألتني بحيرة محاولةً سحق ثقتي الكبيرة بذلك:

ـ ما الذي يجعلك متأكداً كل هذا التأكيد؟

ـ كل شيء حوله يأتي على الذكر بك. . كل كلمة ينطقها تدور حول هيامه بك. الفتاة الوحيدة التي تجعله متمسكاً بالحياة هي أنتِ. . وأيضاً أنتِ هي الفتاة التي تدفعه إلى مغادرتها.

أجمل حبّ. . هو الذي تلتقي به الحياة والموت. . عندما تعيش للإنسان نفسه الذي تبقى أبداً مستعداً لتموت من أجله. .

تساءلت محاولةً أن تتبرأ من أيِّ ذنب، وقد ضرب ذلك صميم قلبها:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل؟

ـ أحبّيه. .

أحبّيه.. فعل أمر لا محل له من الإعراب.. ولا في الحواس..

أحبّيه.. ضحيته رجلاً مفعول كل شيء فيه.

فأجابتني وقد ارتفعت نبَرة صوتها، وكأنّها أرادت أن تضع حداً للحديث:

ـ انظر، أنا فتاة لا أحب الارتباط، لا يشعرني ذلك بالراحة..

قاطعتها:

ـ ولكنه لن يجرحك يوماً.

بدت على وجهها علامات الانزعاج عندما قالت لي:

ـ أعرف ذلك، ولكنّني لست مستعدةً لأحب، ولا حتى ليحبّني أحد.. كفى الآن، سأفكر في ما قلته لي.

نأتي الحب دوماً غير مستعدين.

لأنّ حبّاً كبيراً، لا يحتاج إلى دراسة واستعداد. هو يأتي مباغتاً، تكمن جماليته، بصدمة السقوط أمامه.

ما دمنا نبحث عنه، لن نجده.

كلّ أحلامنا، لا تتحقق دون جهد وتعب، دون أن نعيش الوجع والعذاب بسببها.. ماعدا الحب، إنّه الحلم الوحيد الذي لا تدفع ضريبته مسبقاً، ولذا هو كالثعلب، ماكر.. يغريك بسهولة الحصول عليه.

في الحب وحده، يتحقّق الحلم مباغتاً، أمّا العذابات، فتأتي لاحقاً.

هذا هو منطق الحب المعاكس.

لم نعرف قبل ذلك من الشقاء الإنساني غير ما قرأناه في الروايات، وشاهدته أعيننا على المسارح وفي الأفلام، كالشقاء الذي عرّفنا إليه «شيكسبير» في إبداعيّاته «مولان روج» و«هاملت».

وهذا هو الشقاء الذي حصل لـ «ترستن» الذي التقى بالفتاة وأحبها، والتي لم تقل له اسمها الحقيقي في بادئ الأمر خوفاً منه.. وبعد طول فراق، ذهب ليفوز بالملكة «أيزولد» لملكه وصديق عمره.. الملكة «أيزولد» التي اكتشف بعد فوات الأوان، أنها الفتاة نفسها التي أحب.. فعندها.. كان عليه أن يختار بين حبه لأيزولد، وإخلاصه ووفائه لصديق عمره.

"ترستن وأيزولد" كان أجمل الأفلام التي شاهدتها على الإطلاق.

فكما أن الحب سعادة.. هو أيضاً شقاء.

ومعها.. سعدتَ بالشقاء..

رأيتُ مهى في اليوم التالي، إنما من بعيد فقط..

كنت مستعجلاً ومشغولاً جداً فلم أكلّمها.. ولم تحاول

هي لفت انتباهي، رافضةً لأحداث اليوم الفائت أن تعود، وللشّعور بالذنب أن يتملّكها.

ولكن في مساء ذلك اليوم نفسه، فاجأتها في حديقة منزلها...

بدت الزنابق المستوردة والأزهار شاحبةً تحت ضوء القمر وكأنها ليست حقيقيةً.. توسط تلك الحديقة حوض من الياسمين يعلوه جسر حجري صغير، وقد غمر القمر الأشجار والنباتات بأشعته الفضية.. أطلق طائر ليلي زعقةً حادةً أقلقت السكون.

ـ إذاً، أين كنّا البارحة؟

لم تتوقّع وجودي هناك، فأصابها صوتي بالذعر.. علّقت:

ـ أنت تعرف.

ـ نعم، حقّاً، أنا أعرف.. إذاً ما الذي يمنعك من أن تحبيه؟

فأجابتني وكأنّها قد وصلت إلى يأس في التهرّب من ذلك الموضوع:

ـ لا أعلم!.. لم أستطع فعل ذلك.. أنا لا يمكنني أن أعتبره إلا مجرّد صديق.

فانتفضْتُ غيظاً وصحتُ بها:

ـ لكنّه لا يمكنه أن يعتبرك إلا حبيبته.. أراد الانتحار

بعد أن لم ير من لزومٍ للعيش دونك.. هل كنت تعلمين ذلك؟.. أتصدّقين هذا؟

بصدمة وخيبة معاً:

ـ نعم أصدّق.

ـ وما بالك تقفين هنا كالحجارة الصمّاء لا تقولين شيئاً.. ما بالك تتهربين من الحقيقة؟!

انتقلنا من مكانٍ إلى آخر في تلك الحديقة.. جلسنا على مقعد تحت أشجار الحور. قالت:

ـ أي حقيقة؟ هذه هي الحقيقة..

ـ البارحة قلتِ إنّك لست مستعدّة للارتباط، وقبلها قلتِ إنّه ليس من النوع الذي يعجبك، أما الآن، فتقولين إنّك لن تعتبريه سوى صديق.

فأجفلت واقفةً وقالت بصوت ثائر:

ـ انظر.. لا أريد أن أتكلّم بهذا الموضوع من الآن فصاعداً، لأنّك تشعرني بكثير من الذنب، رغم أنني يجب ألّا أشعر هكذا.

ـ يجب أن تكوني على أتمّ العلم، بأنّ الضمير الشاعر بالإثم لا يحتاج إلى متّهِم.. وإن لم تشعري هكذا الآن، فستشعرين به في أحد الأيام.

قالت متمردةً وهي في حالة الغضب نفسها:

ـ لا . . لن أشعر بالذنب، ولا حتى في أيّ يوم من حياتي، لأنّني لم أرتكب أيّ خطأ . .

قلت لها، بينما أدركت أنّي بدأت أجرحها بكلامي:

ـ هل أنت على هذا القدر من القساوة؟ ويل لهذه القلوب المتحجرة. . .

ـ أنا لست مستعدّةً لذلك الآن. . لن تفهمني،لأنّك لا تمرّ بما أمر به.

قلت لها بحزن غامض:

ـ إذاً . . هل ستكونين مستعدّة في وقت لاحق؟

فداهمها ذلك الشعور بالارتباك كعادتها، وقالت:

ـ لا أعلم، لا يمكنني أن أعدك بذلك. . لكنّني لا أملك قلباً قاسياً.

ـ قلبك قاسٍ جداً . . ولو كنت أكثر شجاعةً وقوّةً، لكان كلّ شيء على ما يرام.

فقالت بعصيان، وقد بلغ منها الثأر كل مبلغ:

ـ أنا قويّة، ولا يهمني إذا اعترفت بذلك أو لا.

أيقنت حينها بأنّ ذلك سينتهي وسط صراع بيننا، وقد يضرب أحدنا الآخر. . لكنّني لم أشأ ذلك. . لم أكن مستعدّاً للخسارة، فأنا قد بدأت محاولتي للتو، ولم أنته من خطتي بعد. . فهدّأت نفسي، ورضيت بأن أخسر المعركة كي أفوز بالحرب. .

همست بلطف:

ـ مهى، لا أريد أن ننتهي هنا وسط قتالٍ بيننا.. لم أشأ أن أغضبك.. أريدك أن تفكري في الفرصة التي تكلمت عليها عندما بدأنا الكلام..

أعتقد.. أنه كان من الخطأ أن أقول لها كلّ ذلك الكلام..

في الحياة، هنالك أناس لا يستحقون كلاماً كهذا.. هناك أناس كلّما أحببناهم ازدادوا طمعاً وأنانيةً..

هم في الحب كالبحار، كلما أعطيتهم، ازدادوا عطشاً.. يبتلعون دون رحمة..

إنّها حقّاً من البشر الذين يمتلكون قلوباً متحجّرة..

نحن تكوّنّا من كل شيء.. ولذا نحن، ولإشباع النفس، بحاجة إلى كل شيء.. ولذا نحن أيضاً، نشبه كل شيء.

إذا أردت اليوم أن أشبّهها بأحد تلك الأشياء..

ربما، أراها أرضاً بركانيةً أو البركان نفسه.. أراها بعيدةً عن الخصوبة، لا تنبت شيئاً.. أراها أشعلت كبريتها وانفجرت، بينما كنتَ أنتَ الضحية..

كانت فتاةً ضعيفةً.. لا تملك القوة لتواجه ما تريد وما لا تريد..

مراراً.. اعتقدتُ أنني سأرغمها على حبّك»..

حاولت كثيراً وأكثر من الكثير.. ولطالما اتَّهمتُ نفسي بأنَّ محاولاتي خلقت الأمل في داخلك.

لكنّك..أحببتها بلا أملٍ..

عادةً.. عندما نحبُّ شخصاً، نحبُّ أشياء داخله، وعندما نصل إلى تلك الغاية، نفقد تلك العاطفة تجاهه.

إلا أنها لم تكن هدفاً أردته، ولا حتى شيئاً من تلك الأشياء.

لم يكن حبّك غاية، بل حلماً.

***

لا أكثر وجعاً من أن تعرف عن شخص تحبه، بل تعشقه، أخباراً لا يريدك أن تعرفها.

ربما ما كان عليَّ أن أفيدك بكل ما حصل بيننا، من المؤكد أن ذلك جرحك كثيراً.

لكنني لم أقصد يوماً إيذاءك، كنت أريد فقط شفاءك.

أمّا الشيء الذي جرحك أكثر، فكانت تلك العلاقة الغريبة التي ولدت بيني وبينها بسببك أنت.

ألست أنت الذي وضعتني بينكما؟

لعلّ ذلك التواطؤ الذي نشب بيننا كان يزعجك كثيراً، وخصوصاً أنّنا كنا متطابقين بالفكر والمبدأ والشخصيّة، حتّى أنّنا أحببنا وكرهنا الأشياء نفسها.

كنّا دوماً على توافق بكلّ الآراء..

اجتمعنا بكلّ شيء سواك. أنت الذي جمعتنا ذات يوم.

لم أحبّها ذاك الحب الذي يولد بين رجل وامرأة، لكنّني، عشقتها ذاك العشق الذي يأتي بلا لقبٍ.

ثمة أناس لا تريدهم عشاقاً لك.. تريدهم فقط عشّاقاً لدربك، وعمرك.

كنّا في مساء ما، وحدنا في منزلي في بيروت.

ذاك النهار، كنتَ على موعد مع شركة الإنتاج، ودعوتك لتبقى ليلتها في منزلي.

لا أدري كيف بدأ حديثنا، لكنّني أذكر أنّني قلت لك:

ـ أريد أن أقرأ لك قصيدة كتبتها.

توجّهت نحو أحد الرفوف الأولى من مكتبتي التي غطت الحائط بكامله.

كان ذلك الرف يحتوي على أجمل الكتب التي قرأتها في حياتي، والتي كان كتاب «ذاكرة الجسد» للروائية «أحلام مستغانمي» أهمها، حتى إنّني قمت بقراءة الكتاب أكثر من سبع مرات كاملة. أما الذي كان أكثر تميزاً في ذلك الكتاب،فهو التوقيع الذي حصلت عليه خطياً يوم التقيتها في بيروت، بعد أن أهدتني في الصفحة الأولى الفارغة كلمات اختصرَتها بـ "حارس الذاكرة الأمين".

لا أدري لماذا يهمنا الإهداء والتوقيع إلى هذا الحد؛ ألأنّهما الشاهدان الوحيدان على أننا التقينا بالكاتب الذي أسر العالم بسحره وأدبه، وقد وافق أن يعطينا من ذلك القلم، جملة.. وتوقيعاً؟!

أحمل دفتري الأسود وأتوجه لأجلس إلى جانبك.

«مالي أراك تجالس جمر الذاكرة اللعين
يا رجل.. استيقظ، فقد ولى ليل الحنين
ماعاد الليل شوقاً ولا الزمن للمحبين
قتل البدر نفسه وانتحر في رحم أمه الجنين
أصبحت بدعة الإخلاص سجن المساكين
والوفاء إعاقة قلبية تصيب الطاهرين
لم يظهر في جسدك الألم؟
من عابثة تراقص الوتر.. تحرق النغم
من هي.. لا تستحقّ الأنين
ولا أن ينزف من أجلها قلم.
اغتصبت قلبك وتركت الغشاء حزيناً
يبكي خيوطاً لم تحكها السنين
تركت صفحات كتاب المحبين
وخطت نفسها على أوراق الضائعين
لتدخل ثبات عشقٍ دام سنين»

صمتُّ بعض الشيء لأنظر إليك، وقد كان بعض من الدمع قد ملأ عينيك. ثم أكملت:

«أصمَّ السامع من صمتها الكبير

وصرخ الأبكم بوجهها:

أنتِ.. ألا تسأمين؟

هو علمنا لم يتوصل إلى «عدسات حب»

يستعملها كلُّ متحجّر ضرير

ولا «جرعة عشق» تسكن كلّ كاتب وشاعر

أو «واق قلبي» يمنع إنجاب الألم في السرير

عندما تضاجعنا المشاعر...

إرحل عنها وفي بحار الحقد أغرقها.

اتركها وحيدةً أو مع صفحات الماضي مزّقها

قم بالثورة وعن عرش قلبك اخلعها

إن قاربت شفتيك لا تقبّلها

وإن صرخت إليك فلا تسمعها

تخلَّ عن كلّ ما يتعلّق بها

ولو كانت الحواس تعزف لها

اقتل الحواس ودمّرها

لا تخشَ الخيبة والخذلان

أجمل الغدر.. غدر الحواس».

انتهيت من قراءتي، دون أن تعطي أيّ تعليق.

قلت لك بثقة:

ـ صدّقني، ليس هذا سوى حب عابر.

أجبتني:

ـ هناك فرق بين الحب العابر، والحب الذي يعبر عليك.

أمام تلك الفلسفة المريرة، لم أملك سوى الصمت.

ثم أضفتَ:

ـ تماماً كما أنّ هناك فرقاً كبيراً بين حب الرغبة ورغبة الحب.. صديقي، عدني بأنك لن تبتعد عني يوماً.. وبأنّه لن يفرّقنا شيء.

ضممتك قائلاً:

ـ أعدك لن نفترق.

***

تخيَّل..

إحلم..

توهّم..

تخيل لو رتَّب القدر لك موعداً آخر معها.. موعداً في مدن بعيدة عن مدن الآلام.. مدن بعيدة عن ضمائر الخوف.. مدن الحب تحت المطر.

هناك حيث تستيقظ على سرير الحب، لا على سرير الرغبة.. عندما تسكر على وطء الرعشة دون تأثير الخمرة.. حين تنزل النواميس دون أوامر من الآلهة.. حين ترفع الصلوات دون مآذن الجوامع ورنين أجراس الكنائس..

لو رتَّب القدر لك موعداً آخر معها.. لكنه للأسف لم يفعل..

ذات آب.. ذات ليلة في الماضي أحببت.

عذراً..

ذات آب.. ذات ليلة.. استشهدت.

استشهدت لفتاة تركت صدى أنفاسها في الصميم تجرحك.. لفتاة حرقت سقمك بعد أن كادت شفتاها يوماً تطعمانك.. لفتاة رحلت.. رحلت دون أن تنوي الرجوع إليك.

لو رتبت لك الصدفة موعداً آخر معها.

طبعاً.. كل شيء يأتي عند أبواب الصدفة.. عندما لا ننتظره.

صدفة بضيافة شباط.

لو سجنت معها في منزل أقفلت أبوابه الثلوج.. هناك حيث تتدفأ على وهج الأنفاس.. حين تنام على سرير العيون.

لذا أحببتَ الثلج إذاً؟

لو ذات تشرين..

تمشي برفقتها على درب طويل.. إلى جانبكما الأشجار العارية، وتحت وطأة أقدامكما تتكسر الأوراق اليابسة.. تلتقط يدك، وفجأةً تستيقظ لتجهش بالبكاء..

حتماً، كنت تحلم لتستيقظ مخدوعاً.

هنا.. تهديك بلادنا كلَّ ما تتمناه من أشكال لقاءات.. تهديك الأمطار.. وتهديك الشواطئ والدروب.. ولكنّها تبقيك وحيداً دون حبيب العيون.

***

كنتُ أخشى أن تسيء الظنّ بي.. ولكنك فعلت..

لعلّك ندمتَ لأنّك وضعتني قدراً بين قدركما. علّك بدأتَ تحقد علينا..فأينما اجتمع الحب والصداقة كان الشك ثالثهما.. وبعد الشك دوماً يأتي الحقد.

شكك جعلني أشكّ فيها.. أو ربما أشكّ في نفسي.. وربما أحقد علينا أيضاً.

قلتَ لي:

ـ كل شيء ممكن حتى تثبت عدم صحّته..

أجبتك:

ـ ومتى يحصل ذلك؟

بثقة:

ـ لم يأت الوقت بعد.. ولكنه سيأتي يوماً..

ثم أضفت:

ـ لا تأخذ كلامي محمل الجدّ.. أنا أمزح.

اليوم لعلّه حان لك أن تعرف ما سيحصل بيني وبينها.. وأنه يحدث للحب للكبير أن ينتظر كثيراً..

امرأتي أنا كانت امرأةً وهمية.

عادةً، نحب الأشياء التي لا تأتي، وإن أتت كثيراً ما نفقد حبّنا لها.. وربما نكرهها.

إذاً.. امرأتي أنا كانت امرأةً لا تأتي.

هو الحب وحده يستحقُّ الانتظار.

امرأتي أنا، كانت امرأةً تستحقُّ الانتظار.

امرأة وهمية.. امرأة لا تأتي.. امرأة تستحقُّ الانتظار.

لطالما شكرت ربّي لأنّني أحبُّ هذه المرأة التي لا اسم لها.. لا جسد لها.. لا ثوب تلبسه لتتعرّى منه...

هذه المرأة التي لا أفقدها.. لأنّني أساساً.. لا أملكها.

كنت تقول لي دوماً بأنّك ستتدبَّر موتنا نحن الثلاثة.

وحتى الآن.. ما زلتُ أذكر كيف كنتَ تفكّر في طرق الإجرام، وكيف كنتَ تفضل جريمة على أخرى.

كانت شروط جريمتك أننا سنموت بالطريقة نفسها..
وفي اللحظة نفسها.. وفي المكان نفسه.

كنّا نضحك عندها.. لأننا كنّا على يقين بأن ذلك لن
يحصل.

هاتفتني في أحد الأيام في الصباح الباكر.. أصابني
اتصالك بذعر يومها.

كنتُ أخاف علَيك كثيراً.

قلت لي بعد التحية والسلام:

ـ لقد أجريت تعديلات على الخطة.. أحدنا سيبقى على
قيد الحياة..

ترى إذا اجتمعنا اليوم، أنا وأنتَ وهي.

ونظرنا في أعيننا لنرى من بقي على قيد الحياة.

كان من نصيب كل منّا أكثر من موت.. وأكثر من
سقوط.

أردد السؤال نفسه مراراً وأقف أمامه طويلاً.. أطرق
أبواباً وما من سامع يفتح.. أشرب نخب أيام رحلت.

هي التي قتلت الكثير.. هل يأتي من يقتلها؟

ليس قبلة.. هو أن تنتظر، وأن تختبر مدى شجاعتك
لاجتياز المسافات الفاصلة بين المنطق والمستحيل.

وهو أيضاً أن تتكهّن، وتربط كل قدرك بمن أصبح في

الغياب.. أن تتربص ليلاً خلف بندقية لصيد كوكب، وأن تركض أبداً لتلتقط شهباً سقط للتو من السماء.. إنّه الحب.

هو أن تفقد كل ما تملك.. حتى عقلك!

كنت خلال تلك الفترة التي أتكلم فيها مع مهى من أجلك، أكتشف أشياء لا علاقة لك بها.

ولم أعد أدري ما إذا كان هناك من يوم سأنتقل فيه من مساعدة رجل، إلى رجل يحتاج إلى المساعدة، أو إذا كانت تلك القصة، بعد أن كانت قصّتكما.. ستنتقل تدريجيّاً في عربة القدَر على طريق الزمن لتصبح قصّتي وحدي.

يوماً بعد آخر، كنت أنظر إلى جمال أنوثتها، وأخاف من فشل مقاومتها.. كنت أصارع كل الرغبات الإنسانيّة بالإخلاص.. كنت دوماً على موعد مع ذاكرة الوفاء. أقول لنفسي، بين الحين والآخر: لا.. لن يحدث.

إلى أن حدث.. شيء آخر.

زغردات

نسى دوماً في اللّحظات الشاهقة أن نكون على حذر من فخاخ القدر.. ويصبح عندها الوفاء خيانةً نرتكبها بحقِّ أنفسنا.

تواصل أيامك بسعادة من انتصر على كل شيء.. حتى على قدر المستحيلات.

تغلق على الصور الماضية، وأوراق أيلول في صندوق.. كما في كتاب.

ومن ثَم.. سهواً تأتي.

في زلة نظرٍ تأتي..

تجلس أمامها وكالذي فهم قوانين اللعبة تحاول أن تعرّيها من الشبهات.

على المقعد المقابل لفوضى الأيام، تجلس كرجل ثمل الأفكار!

وإذا بك عندها تدرك حجم خسائرك السابقة.

هي التي قادتك ذات يوم إلى محطة الخسائر الفادحة.. والتي صنعت من الماضي أشياء لن تفارقك أبداً.. لا بدّ لك أن تتساءل: لماذا اليوم؟ لماذا أنا؟ وهذه المرة إلى متى؟

أمام الأجوبة الغامضة والحذر المربك، كالمجرمة الأكثر براءة على الإطلاق تحاول أن تبعد عنها الشبهات.. فتبدأ:

تربِكُ الحواس، وذاك الحقل المجاور للذاكرة تزرعه وهماً.. وهماً.

تقنِعُكَ أن التاريخ لا يعيد نفسه، وأنّها على عكس المرّات السابقة.. لن ترحل.

تُنسيكَ الأيام الغابرة وأبطالاً رحلوا، لأنها سيدة الحاضر وأسطورة المستقبل.

فتعشقها كما لم تفعل من قبل، دون أن تشك للحظة واحدة بأنها خيبة أخرى لماضٍ.. لم يأتِ بعد!

فهي أيضاً.. ليست تدري..

هو أن تحاول الهرب من الأشياء التي لا يمكنك مقاومتها.. فتصطدم بها.

هو أن تخلع الحياء جانباً، وتؤمن بإله.. ما عاد موجوداً.

أن تسلّم المقود إلى القدر، وتعطيه قدر ما تستطيع من الخمر وتدعه يثمل.

هو أن تشتري بطاقة أو تحجز مقعد على متن وهمٍ وجهته.. اللا شيء.

هو أن تتواصل مع المستحيل و أن تكتب رسالة من الأرض إلى السماء لإنسان على متن طائرة..

علّه يقرأ.

وتستدرج الحياة إلى أخطر الرغبات. أن تجرّدها من المنطق.. لتسخر منها.

هو أن تدّعي فلسفة النجوم، وعلم الغيب لتنظر من أصبح في الغياب..

أن تتحدى، وتشتهي الممنوع.. أن تحذر، وتموت حياً.. إنّه الحب!

هو أن تفقد كل ما تملك، حتى عقلك!

أو بلغة قاطعة.. إنّه الجنون.

***

لم تكن تتوقّع عودتها على الإطلاق.. كنتَ قد وصلت إلى زمن أصبحت فيه العودة حلماً.

لم تكن تتوقّع عودتها لتعيد معها ذاك الخراب والقلق.. تلك الدهشة الغامضة.. الفرح المختبئ خلف أبواب الحزن.. لتعيد معها أشياء جديدة لم تكن يوماً في الحسبان.

هي التي لم تكن عودتها في الحسبان، كيف يمكنك أن تحسب كلّ ما سيأتي معها.

تلك الزلزال الذي لم يحتمل "رختر" القلب مقياساً له.. الامرأة الموجة التي لم يسبق أن ضربت أراضي

هندوسية من قبل.. يا ناراً تفشّت في كل رجل كسرعة اللهب على مرّيخ العشق.. يا قوساً تألّق بألوان مثيرة للرغبة والدهشة والجنون. هل أنت حقاً تعودين؟!

قرّرَت العودة إذاً، لكن بغموض أكبر هذه المرة..

كان القدر يخبِّئ لنا دوماً عند منعطفاته لوحات مغرية.. وكانت قلوبنا تزحف مسرعة الشهوة إليها.

وكنّا، عند كلِّ منعطف، نسقط من جديد، لا لأنّنا فشلنا في التعامل معه، بل فقط لأنّ قدرنا هو قدر الأقنعة.. وقدر السقوط.

كان يكفينا أن يتحرّش بنا أيٌّ من أبطال ذاكرتنا لننزلق إلى الماضي مسرعين.

وكنّا، عند كلّ لوحة، نراجع علاقتنا بتلك الأشياء، ونغوص عمقاً في دهاليزها، مقتنعين بأنّ هذه المحاولة ستكون الأجمل، وربما.. الأنجح.

كنتَ ذات يوم، في صباح الصّمت، ذلك الذي يفصل بين الذاكرة والنسيان.. الذي تنتقل به من عمر الخيبة إلى عمر الاستهزاء، لا لأنّك حزين، بل لأنّك أصبحت أكثر قناعةً من أن تبكي.

في عمر الانتقال، ذاك الذي عليك أن تكون به أشدّ حذراً، كان يكفيك اتصال هاتفي منها كي تسافر خمس سنوات إلى الوراء.. إلى أول دقيقة من عمر الحب.

كان لصوتها ذاك اليوم وقع بارز عند محطة القدر.

دون أي مقدمات عن حالتها العاطفيّة، وسبب اتصالها قالت لك:

ـ كيف حالك؟

عادت المرارة مسرعةً، فأجبتها بشيء من الخيبة:

ـ أي منها؟ الآن.. أم تلك التي سبقت صوتك؟

اشتعل الحديث بينكما بسرعة، قبل أن يبدأ فعلاً. قالت:

ـ وهل ثمة فرق؟

ـ هناك أشياء كثيرة تفصل بين أنت.. وكل شيء.

ثم أضفت سائلاً:

ـ هل يكون الجنون حالة؟

علّقت:

ـ الجنون أحوال متضاربة ومتناقضة.. يا إلهي.. لا تقل لي إنّك مجنون!

كان عليك أن تقول لها: ومنذ متى يعنيك أمر جنوني. لكنك قلت:

ـ في النّهاية، عليك أن تربطي حالة ما، بشيء ما.. وهنا، ذلك الشيء هو أنت.. ولذا، أنا مجنون بك.

سمعتَها تضحك ضحكةً بريئةً على حافة الإغراء. قلتَ لها:

ـ ماذا تريدين مني؟

ـ لا أدري، أردت فقط أن أطمئن عليك.. لماذا تسأل؟ هل هناك من مشكلة؟

ـ أنت كل مشاكلي، أنت هزائمي وخيباتي.. أنت كل سقطاتي.. كيف لك أن تسأليني هل من مشكلة؟

كان لا بدَّ من ألّا تدخل هذه الجدليّة، وتكون أخيراً على حذر.. كان لا بدَّ من استجوابها حد الصراخ كي تتَّضح الأمور.

صمتت هي، لكنك بصوت أعلى صرخت:

ـ هيا قولي لي.. ماذا تريدين مني؟

بشيء من الخوف والحزن الغامض، قالت:

ـ هل نلتقي؟

إذاً، ها هي امرأة الرحيل.. تسألك: هل نلتقي؟ ماذا ستقول لها؛ هل ستقول لها إنّك سئمت اللقاء حلماً، وإنّ الرحيل أصبح أكثر بعداً من أن نلتقي؟

كنت أنت في الواقع تُفاجأ بكلّ ذاك التواطؤ. ولعلّك كنت تُفاجأ إلى حدّ الصدمة. لماذا تعود امرأة لتلقي بك في لحظة عاطفة صامتة بعد أن صمتت لسنوات من اللقاء في حضور العواطف الجامحة؟!

إذاً.. في مقهى «اللقاء» التقيتما.

كانت الأشياء تعود بسرعة غريبة، وكأن كل الأعوام

السابقة للجنون والحرمان لم تكن موجودةً فعلاً. لقاء بعد آخر، كان يلغي سنة حزن بعد أخرى.

استيقظت يومها بجنون غامض. ورحت تهيّئ نفسك بمزيج من البهجة والخوف في آن واحد.

أخيراً.. ستلتقي بها من جديد. كم انتظرت هذا اليوم، الذي تسمعها تقول فيه: «هل نلتقي؟».. كم انتظرت أن تجلس أمامك، لتقول لك أشياء لم تسمعها من قبل إلاّ حلماً.

كانت سعادتك حينها، أكبر من أن تجعلك تحذر مرةً أخرى من فخاخ القدر.

أيّ رجل يحذر من فخاخ امرأة تتقن الإغراء.. أيّ رجل يبقى صامداً وحذراً أمام امرأة القناع الذي تختبئ خلفه الصواعق والبراكين.

كان عليك أن تحذر منها منذ اللقاء الأوّل، أو كان للمنطق أن يعلّمك أن تحذر منها حتّى ما قبل اللقاء الأول.

مع أمثالها، يأتي الحذر مسبقاً.

مع أمثالها.. تأتي أشكال الترقّب قبلها، لأنّه بعد ذلك، لا يعود باستطاعتك أن تفعل شيئاً.

طلبت سيارة الأجرة، ورحت ترشُّ نفسك بذاك العطر الذي أحبته منذ زمن، وكأنّك ترشه على جسدها فقط، لا غير.

قال لك السائق يومها:

ـ لماذا كلّ هذه البهجة الممزوجة بالعطور.. لعلّ حبيبةً تنتظر هناك؟!

ـ لا، ليس هناك من حبيبة تنتظر؛ إنّها امرأة علّمتني الحب وكيف يكون الانتظار.

قلْتَ له هذه الكلمات، دون سابق تفكير واختيار.

لحظات من الشرود الذهني والذهول، وكأنّك كنت تنتقل بتلك السيارة من عالم إلى آخر، بل كنت تنتقل من كلّ شيء إليها.

وصلت إلى مقهى «اللقاء»؛ وكانت هي تنتظر عند المدخل.

ها هي.. تنتظر.

من قال إنّ العظماء لا ينتظرون، وإنّهم يأتون دوماً متأخّرين؟ من قال إنّ العظماء أعلى من أن ينتظروا أمام مقهى.

وقفت أمامها، بل أمام عينيها مذهولاً، ورحت تقترب منها كرجل يقترب من جميلة ما لأوّل مرة.

ترى من كان الأجمل؟ هي أم عيناها؟

قالت لك قبل أن تبتسم:

ـ لقد تأخّرت كثيراً، هل كنت في مكان بعيد؟

ـ في الواقع نعم، كنت حيث انتهينا منذ خمس سنوات، كنت أجتاز الطريق من كابوس حدث ذات يوم إلى الحقيقة فقط.

ـ يا إلهي! لعله كلفك ذلك كثيراً. كم دفعت لسائق التاكسي؟

ـ في الواقع، لم آتِ في سيارة التاكسي، ركبت عربة القدر، وكلفني تعويضاً عن تلك الرحلة الغريبة الكثير من سعادتي وعمري. عليك أن تعلمي أنّ ثمّة رجالاً لا يركبون سوى القدر، أما التاكسي، فهو تمويه يهربون به من عظمتهم أمام النّاس العاديين، كي لا يقتلوهم غيرةً، ذاك أنّهم.. رجال استثنائيّون.

كانت هي تأتيك بجملة مرح وكأنّ شيئاً لم يحدث بينكما ذات يوم، وكنت أنت تردّها بجملة خيبة كي تذكّرها بكلّ الذي حدث.

قالت:

ـ إذاً.. أفهم من كلّ هذا أنّني أقف الآن أمام رجل استثنائي.. كم أنا محظوظة!

ضحكتما ضحكةً عالية، قبل أن تمدّ يدها لتصافحك.

التصقت كفّها بكفّك. وللحظات من الصمت، سارت شحنه كهربائيّة في جسدك، فانتفضت مسرعا وأفلتَّ يدها.

علّقت:

ـ ما بك؟ أنت تخيفني.

ـ لا أدري، إنّها شحنة كهربائيّة.

كمن انتبه إلى شيء فجأةً، نظرت حولها قائلةً:

ـ هل سنبقى واقفين طوال النهارهنا عند باب المقهى، دعنا ندخل.

إذاً دخلتما المقهى، وكنت أنت حينها، دون أن تدري، تدخل من خيبة إلى أخرى.. داخل المرأة نفسها عبر باب مقهى.

جلست أمام كأس، فصلت بينك وبين عينيها.. على كرسي للجنون، أمام كرسي غريب للصمت.

هذا هو اللقاء الذي ستضعان فيه شيئاً من الصراحة والترتيب الواضح. ستتحدّثان به عن كلّ شيء.

قلت:

ـ إذاً ما هي مشاريعك القادمة؟

ـ على أيِّ صعيد.. تقصد عاطفيّاً أم عمليّاً؟

شعرت للحظات بأنّكما تحوّلتما إلى مبرّجين يتعاطيان علم الفلك.. لكنّها لم تكن كباقي الفلكيّين الّذين يطرحون سؤالاً «عاطفيّاً أم عمليّاً؟؟» لإعطاء إجابة فقط.. كانت فلكيّة بامتياز.. كانت تستدرجك إلى أكثر من نقطة وأكثر من احتمال.

لكنّك قلت بذكاء.

ـ أليس لدينا متّسع من الوقت لنناقش الاثنين؟
ـ حسناً.. من أين أبدأ؟
قلتَ لها:
ـ من الأكثر أهميةً، ربما.
لعلّك أدركت أنّها ما زالت كما هي، ولم يتغيّر فيها شيء حين قالت:
ـ لقد تمّ قبولي في كلية التمثيل والإخراج للسنة المقبلة،أي بعد بضعة أشهر.. كنت من الأوائل في تلك الدفعة، وقد سعدت للخبر كثيراً.. أخيراً، سأضع شيئاً من السعادة داخلي.
ثم أضافت:
ـ أتدري، ليس هناك أجمل من أن تقف أمام الكاميرا لتقول أشياء ليست حقيقيّة، وتعيش شخصيّات ليست موجودة إلّا في الروايات والأوهام.. «في التمثيل وحده يمكنك أن تعيش حياة الآخرين دون أن تدفع الثمن».
أحبّت التمثيل إذاً.
ـ يا إلهي، في الواقع عليَّ أن أضاعف مشروع الحذر منك من الآن فصاعداً.. لم أتمكن من أن أحذر منك فقط، بل عليّ الآن أن أحذر من ممثلة كانت أنت.
قالت بشيء من السخرية والمرح:
ـ لا يا حبيبي.. العمل شيء، والعلاقات شيء آخر،

عليك أن تفصل دوماً بين حبّك لعملك، والتعامل مع الآخرين، وعليك أن تتعلّم أن ليس كلّ الممثلين كاذبين، ولا كلّ المعلمين صادقين، كما أنّه ليس كلّ القضاة منصفين.

توقّفت طويلاً أمام تلك الجملة، ورحت تبحث فيها بين الحقيقة والكذب، وقد تقرّر اليوم أن تقول لها: «عليك أن تتعلّمي أن ليس كلّ النساء مخلصات، ولا كلّهنّ مكتفيات». توقّفت أمام تلك الجملة طويلاً إذاً.

عند تلك الكلمة توقّفت.. «لا يا حبيبي». كانت تلك المرَّة الأولى التي تقول لك فيها «حبيبي». هل كان عليك أن تأخذ تلك الكلمة مأخذ الجد وتصدِّق أنّك حبيبها؟ تلك الكلمة المحض لبنانية.. التي نستعملها مع كل جملة وفي كل موضوع، بحيث يصبح عدونا حبيبنا، هل كان عليك أن تصدّقها حقّاً؟

في هذه الحالة، كلّ الاحتمالات واجبة.

يا حبيبي.. كانت الكلمة الاحتمال.

هل كانت هي تتلاعب بالكلمات لتستدرجك مجدّداً، أم كانت مرةً أخرى، بمنتهى البراءة، لا تلاحظ مدى تصرّفاتها.

لا.. لم تكن بريئةً.. كانت البراءة صفةً أخرى أتقنتها لخدمة شراستها.

قالت تلك الجملة بإغراء.. وصمتت بانتظار تعليق منك. لكنّك أخذت الحديث إلى مفترق آخر قائلاً:

ـ لماذا عدتِ؟

ـ لأنّني بدأت أتّخذ قراراً آخر.

ـ لماذا الآن؟ لماذا اليوم بالذات؟ لماذا بعد خمس سنوات؟

حنت رأسها قائلةً:

ـ لأنّني اليوم أردت أن أرتِّب الأشياء داخلي.. أريد أن أمضي.

قلت:

- وكل شيء يمضي.. إلّا أنتِ.. تبقين أبداً حلماً لا يفارق سمائي.

ابتسمتَ ثم أضافت:

ـ وأين تضعينني في ذلك الترتيب؟

ـ لا أدري.

ـ بربّك، بأنت، وبالإغراء.. ماذا تريدين مني؟

مجدّداً:

ـ لا أدري

ـ مهى، هل تحبينني؟

صرخت:

ـ قلت لك لا أدري.. لكنني بحاجة إليك.

شعرتُ أخيراً بأنّني بدأت أنجح، وبأنَّ كلّ محاولاتي لم تنتهِ بالفشل.

سعدت كثيراً عندما أخبرتني بكلّ الذي حدث، وكانت الحياة عندها قد عادت لتدبّ فيك روحها من جديد. . كان الياسمين قد أزهر، وكانت الطيور قد عادت لترقص بهجةً بها.

وكنت قد بدأت أنشغل بأحد الأصدقاء الذي اتَّصل بي قائلاً بأنّه سيقوم بزيارة إلى لبنان.

كان «جاد» شاعراً. . ولا كلّ الشعراء. كان رجلاً مثقّفاً له قيمته الاجتماعيّة واسمه البارز في عالم الأدب والشعر.

كان في الثالثة والعشرين من العمر. . له ديوانان ورواية، وقد جاء إلى لبنان بغية توقيع ديوانه الثالث.

كتب جاد أشياء رائعة. . أشياء لطالما قرأتها، بشعور مختلف كلّ مرة. . وكان منها:

«انتفضي سيدتي،

انتفضي وثوري على جسدي،

ارقصي رقص الأحرار

ارمي أسهم لهيبك نحوي
كطفل فلسطينيّ اصرخي
ملء حبك وقلبك
اصرخي
اركضي ركض البائس
ومن نور عينيك
رصاص من الكلمات أطلقي
فأنا لست سوى رجلٍ
أحبّك.. بعنف الصهيونيّة»

لم تكن نفسيّة جاد على قدْرٍ كبير من الأهمية، ولذا لم يجمعني سوى تلك الصداقة الثقافيّة.. الغدر والخيانات، كلّها لم تكن تعني له شيئاً. كان رجلاً أنانياً.

إضافةً إلى الكتابة، عشق جاد الموسيقى إلى حدّ الجنون.. وكان هو أيضاً مثلك عازف عود.

كنت أنت قد قابلته بزيارة سابقة إلى لبنان. في تلك الزيارة، تحدّثتما عن أشياء كثيرة في عالم الموسيقى الذي لم أفهمه يوماً. وولدت بينكما صداقة ثقافيّة من نوع آخر.

وصل إلى بيروت قبل موعد توقيع كتابه بثلاثة أيام.. وقرّرنا يومها أنا وأنت أن ندعوها إلى ذلك الحفل، لنكثف اللقاءات من خلال استغلال أيّ فرصة قريبة.

اتصلتَ بها يومها في الصباح الباكر. قالت:

ـ ما بك؟ هل هناك خطب ما؟

قلت:

ـ في الواقع نعم.. بحاجة إليك.

ضحكت قبل أن تقول:

ـ أيّها الأحمق، لقد أيقظتني. أما كان بإمكانك أن تحتاج إليّ في وقت لاحق؟

ـ لا.. أنا أحتاج إليك في كلّ الأوقات.. أحتاج إليك مع قهوتي الصباحيّة.. وعند وجبة الغداء.. أحتاج إليك في قيلولتي، وعند المساء. تعالي واسكني معي.. تعالي وامكثي داخلي.

ـ إهدأ يا رجل.. إن شاء الله قريباً.

سمعت تلك الجملة ولم تسمع أي شيء بعدها.

إن شاء الله قريباً.. أين هو هذا القريب سيدتي، متى يأتي؟ عجّلي قليلاً.. فما عاد بإمكانه أن ينتظر.

قلت لها:

ـ لقد اتصلت لأدعوك إلى أمسية شعريّة وحفل توقيع لشاعر اسمه جاد بن زيد، لا أدري إذا كنت قد سمعت به من قبل.

ـ لا، إنّها المرة الأولى التي أسمع بها اسمه.

ـ إنّه رجلٌ أديب بكلّ ما للكلمة من معنى، ستعجبين بكتاباته كثيراً.

بفضول:

ـ متى موعد الحفل؟

ـ غداً.. سنمرُّ لنأخذك من المنزل.. كوني جاهزةً في تمام الخامسة من بعد الظهر.

ـ حسناً، هل من شيء آخر؟

قلت:

ـ كلا..

ثم أضفت مسرعاً:

ـ بلى.. بلى.. أريدك أن تكوني بمنتهى الجمال.

قالت بخجل:

ـ اصمت أيُّها العابث.

ما هو هذا القدر الذي جرف المصادفات إلى حفل توقيع في قاعة في قصر الأونسكو في بيروت؟ أي قدر كان قدرك يا رجل؟

أم أنّك كنت رجلاً بلا قدر؟

جاء موعد التوقيع، وأوقع كلَّ شيء في طريقه. جاء موعد التوقيع الذي لم نتوقّع به أيّ شيء ممّا حدث منه.

كانت كما طلبت منها يومها، بمنتهى الجمال.. والإغراء.

وصلنا إلى القاعة متأخّرين قليلاً، فلم نتمكّن من إلقاء التحية على الشاعر لانشغاله بأمور إعلاميّة، فأخذ كل منا ديواناً وجلسنا في الصف الأمامي.

كانت تقرأ الديوان أثناء انتظارنا بإعجاب وبشيء من البهجة الغامضة.

لقد تعوَّد أن يفتتح أي حفل توقيع بمعزوفة جديدة من ألحانه.

قالت لي:

ـ إنّه حقّاً رجل رائع.. يا لها من ألحان جميلة!

ثم التفتت صوبك لتضيف:

ـ هل قرأت شيئاً من هذا الديوان؟

أجبتها:

ـ كلا، ليس بعد.

كنت أنت في الواقع في تلك الأثناء، تقرأها من خلال قراءتها لذلك الكتاب، ولعلّك بدأت تخاف القدر مرةً أخرى منذ اللحظة الأولى.

انتهى جاد من معزوفته، فصفَّق له الجميع..

وقف خلف المنبر، وراح يرحِّب بهذا وذاك، وغاص في لحظات صمت عندما توقَّف نظره أمامها. لم أدرِ حينها ما إذا كانت قد لفتت انتباهه حقّاً.

لكنّني اليوم يمكنني أن أعترف بأنّها قد لفتت كلّ حواسه في تلك اللحظة، ليقول بعد لحظة صمت:

ـ . . . وأهلاً بالسيدات الجميلات.

فخبأت بدورها ابتسامةً خجولةً تحت خصل شعرها.

ترى هل بدأت الغيرة هناك.. أم كان للغيرة كرسي ثابت في كلّ مكان قصدناه.؟

لا أدري كيف مضت تلك الساعة تحت وطأة الحرص والحذر.. والترقّب.

انتهى من كلّ شيء، وقبل الجميع، توجّه نحونا. وقفنا لنهنّئه، فمددت يدك نحوه:

ـ مبارك أيّها الصديق.

من ثم عبر من أمامها ليقف أمامي. قلت:

ـ إذاً.. إنها الولادة الرابعة.. صحيح؟!. مبروك يا رجل.

فربّت على كتفي قائلاً:

ـ أترى؟ هم ينجبون الأولاد.. أمّا نحن، فلا ننجب سوى الصفحات.. والقليل من الأحلام.

ثم التفت إليها، والتقط يدها ليقبّلها قائلاً:

ـ أهلاً.. من تكون السيدة؟

أردت أن أقول شيئاً كـ: إنّها حبيبته، أو ربما خطيبته،

أو حتى زوجته، لكنّكما سبقتماني معاً لتقولا: «نحن أصدقاء».

توجّهنا معاً إلى طاولة المشروبات والحلوى.

وكانا يتحدّثان طوال الوقت عن أشياء كثيرة لم نكن نسمع منها شيئاً لكثرة الضجة، ولم يكونا يتوقّفان إلا عندما يأتي أحدٌ ليُلقي التحية عليه.

حاولتَ الاتصال بها في اليوم التالي أكثر من أربع مرات، وكان الخطّ مشغولاً.

حاولت مجدّداً عند المساء، وفور إجابتها، قبل السلام.

قلت لها:

ـ ما بك؟

أجابت:

ـ لا شيء.. هل ثمة خطب ما؟!

بلؤم:

ـ أحاول الاتصال بك منذ الصباح وأنت لا تجيبين.

قالت متفاجئةً:

ـ لم أكن في المنزل طوال اليوم.

قلت:

ـ مهى، لا تكذبي عليّ.. هل تحبّين أحداً سواي؟!

ـ أنا لا أكذب.. أريد أن أحبك أنت فقط.

صدّقتها عندها..

كم كنت أحمق يا رجل؟!

«أريد أن أحبك أنت فقط».

هي لا تكذب.. من يناقش الممثّلين في كذبهم.. ومن يحدّد أين يكون صدقهم؟

من يقول لامرأة تتقن كلّ شيء: أنت تكذبين. ومن يصدِّق امرأةً تتقن كلّ شيء؟! إنّها المرأة التي لا يمكنك أن تجزم شيئاً في حضرتها.. إنّها واحدة من أولئك اللّائي قد يفعلن كلّ شيء.. وأيضاً.. قد لا يفعلن شيئاً.

صدّقتها يومها..

عندما تقول المرأة لك شيئاً لا تستمع إلى كلماتها، بل إصغِ إلى لغة عينيها.. فوحدها العيون تكشف صدق النساء.

قد تذكر ذلك اليوم الغريب، عندما رنَّ الهاتف عند السابعة بتوقيت الغيرة.

كنتَ في منزلي يومها، وكانت هي على الجانب الآخر لذلك الشريط. لا أدري لماذا طلبت منك أن تجيب في تلك اللحظة.

تفاجأت بك قائلة:

ـ أنت؟

قلت:

ـ نعم، هل أزعجك ذلك كثيراً؟

قالت كمن لم يرتكب ذنباً:

ـ لماذا تعاملني هكذا هذه الأيام.. ما الذي حدث لك لتتغيّر فجأة؟

ـ أحاول الاتصال بك منذ أيام وأنت لا تجيبين.. وإذا أجبتِ أراكِ مرتبكةً وتتلعثمين في كلّ ما تقولينه.. أشعر بأنّك تخبّئين فاجعةً بالانتظار.

ثم أضفت وكأنّك اكتشفت موهبةً جديدةً اسمها الشعر:

ـ عجّلي الفاجعة سيدتي، فالقلب أوشك أن ينفطر.

قالت:

- أنا لا أتهرّب من شيء.. قلت لك إنّني كنت مشغولةً بتحضير بعض الأوراق الجامعيّة، وإنّ عمي وصل إلى لبنان منذ أسبوع، وعليّ أن أمضي بعض الوقت مع العائلة.. صدّقني لن يحدث أي من الذي تخافه.

سمعتك تقول:

ـ متى نلتقي؟

ـ أعتقد أنّني أملك بعض الوقت غداً، يمكننا أن نبقى لساعة أو ساعتين.. كن في منزلي في تمام الواحدة ظهراً.

أيمكن لرجل أن يقاوم امرأةً أحبها وهي تغريه بهذه الطريقة؟

أيمكن لشخص أن يرفض دعوةً من امرأة جنونه؟

أيمكن لك أن تقول لها إنّك لا تستطيع أن تمضي ساعة أو ساعتين في منزلها.. وحدكما؟

كان عليك أن ترفض..

لأنّها امرأة محظورة التجوّل.. لإنها تحمل تلك العلامة الحمراء أنوثةً.. لأنها على علاقة وراثية بمحرقة هتلر.. أو ربما لأنها تهوى الإبادات الجماعية..

ولكن كيف لك أن تكون رجلاً شرقياً لا يعشق امرأة مصنوعة من خطر؟!

كانت امرأةً لا تقاوم.

قالت لك أن تعطيني الهاتف لأكلّمها.. شعرتُ حينها بأنّ اتّصالها يخبئ خبراً ما، أو على الأقل، لم يكن على هذا القدر من البراءة.

قالت:

ـ كيف حالك؟ لم تكلّمني منذ وقت طويل؟ أتكون قد نسيتني؟

- أنتِ تدرين أنّني لا أنساكِ أبداً.. لكنها متاعب الحياة وظروفها تحرمنا أشياء كثيرة.. كيف حالك أنت؟

- الحمد الله.. كلّ شيء على ما يرام.. لكن أيضاً كما تقول، مشاغل لا تنتهي.. زيارة هنا وزيارة هناك.. والكثير من الأوراق الجامعية.

قلتُ عن قصد، وكأنّني أريد التأكّد من شيء:

ـ وفي الواقع، سأبقى مشغولاً حتى نهاية الأسبوع، لأنَّ جاداً سيسافر مساء السبت.

قالت متسائلةً بلغة إخراجيّة:

ـ جاد؟! من جاد؟

تفاجأت لرد فعلها، وكدت أصدقها. قلت:

ـ إنّه الشاعر الذي حضرنا توقيع كتابه منذ عشرة أيام.. أتكونين قد نسيته بهذه السرعة؟

أبدت اندهاشاً كاذباً:

ـ آه.. نعم تذكرت.. جاد بن زيد.. إنّه شاعر رائع.. يا إلهي كيف نسيته بهذه السرعة؟!

نعم.. كيف نسيته؟

كيف تنسى رجلاً توقّفت عنده عيناها لساعتين تقريباً؟

كيف تنسى شاعراً قال لها أشياء، ربما لم يقلها لامرأةٍ قبلها؟

كيف تنساه، هو الذي أهداها ديواناً بتوقيعه، وبضع كلمات بخطّ يده، لم يقرأها أحدٌ غيرها؟

***

حاولتَ أن تنسى أنّ جاداً مرّ على قدَركما.

وكان في أعماقي شيء يقول لي إنّ مروره لم يكن مروراً للكرام.. هو الذي سيغير الأقدار بمجرد صدفة في قاعة في بيروت.

لم يصادف موعدكما ذاك اليوم مناسبةً ما.. ولم يكن حتى موعداً عشقياً.

أليست أجمل المناسبات هي التي نصنعها نحن دون أن تدوَّن في محفظة التاريخ؟ دون أن تكون مناسبةً دوَّنتها كل روزنامات التقويم؟

كان ذلك اليوم عيداً للذاكرة.. أو لعله أصبح في ما بعد كذلك.

صنعتَ عيداً للذاكرة إذاً.. كان ذلك عيدك وحدك.. عيداً تحتفل فيه إلى طاولة بجانب خيبتك وهزائمك، والقليل من السعادة العابرة.

كنت تنتظر عيد الذاكرة كما لم تفعل من قبل. رأيته آتياً إليك من بين الأشجار، على مشارف أيلول.

في الذاكرة، اجتمعت بها.. أسمعتها نغماً جديداً من ألحانك.

ظننتَها قد ترقص.. ولكنها لم تفعل.

قلت لها:

ـ ما سبب هذا اللقاء؟

كعادتها:

ـ لا أدري.

ـ لنقل إنّه عيدٌ للذاكرة.

ثم بشيء من السقم والاشتياق،أضفتَ:

ـ في عيد الذاكرة أهديك هذا الفستان.. اعتبريه جسدي.

نظرت إليها مطوّلاً قبل أن تقول:

- ارتديه.. دعني أعثر أخيراً على الأرقام التي تناسبك.. أريد أن أصبح على قياس رغبتك..

كانت مرتبكةً بعض الشيء.. وراحت تتفحّص ذلك الفستان وتتفقده بمزيج من الخوف والحذر الغامض.. عادت بعد قليل من باب لم تخرج منه بفستان أسود وعلى وجهها علامات ترقّب.

كم كانت جميلةً يومها؟!

جلست أمامك وكلاكما لا يقول شيئاً!

لا أذكر من قال إنّ أجمل الأشياء هي التي لا تحدث كليّاً، بل شبه ما تحدث.

لذا حظيتَ أنتَ بأجمل حب.. لأنّه شبه ما حدث.

كنتَ وحدك معها، وكان بإمكانكما أن تفعلا أشياء كثيرة.. وما كان ليدري بها أحد..

كان بإمكانك أن تجرّب فنّ الحب مع امرأة اشتهيتها منذ زمن.. وتتذوّق ذاك الطعم العذب لشفتيها.. أن تدع يديك

تكتشفها.. تعرّيها.. تبعثرها.. وتتركها أمام ذروة رجولتك تحتضر..

تأتيها خلسةً من الخلف.. تمرّ بشفتيك على مقربة من عنقها وترسم قبلة بفم نصف مفتوح.. فتنتفض.

تلتقطها من الأمام كمن يتقن رقص التانغو وتدرس جغرافية جسدها.. علّك تحفظ خارطة موطنك الجديد.

تلملمها وتنهمر عليها بالقبل.. ومن حطب أنفاسك تدع النار تشتعل.

علّك تحفظ رسم موطنك الجديد.. علّك لا تنسى.

- أتدرين.. أحبّ الحرمان في حضرة الحب.

بشيء من الأنوثة:

- كم تبلغ من الحرمان؟

- خمس سنوات.. عمر عشقك.

لا تناقشك.. تقوم من مكانها لتجلس إلى جنبك:

- اقترب!

لا تقترب، بل تسافر يداك عبر المسافة الفاصلة بينك وبين شفتيها،وتكمل طريقها صعوداً من شفتيها حتى شعرها فتتركها لتعبث بخصله.

بدورها، تغمض عينيها وتنتظر قبلةً.. علّها تأتي.. لو تأتي!

- أحياناً أشعر أنّك تسلّلتِ إليّ من كتاب.

تتعجّب وبفخر:

- هل أملك شخصية بطلة ما؟!

- كلا سيدتي.. بل في عينيك حياء كاذب.. وعشقك ثورة من دون نار..تملكين دفء الأبطال وشراستهم.. فيكِ عنف وعنفوان.. وبمنطق النظرة - فأنتِ، كما هم - تُعشقين من الكلمة الأولى!

ثمّ:

- لحبّك حذر وعلامات حمراء.. فالعشق في حضرتك كزمزمة النار، في زمن الثورات.

تندهش.. أكان ذاك مدحاً، أم هجاءً؟!

لا تتعمّق كثيراً، فهي تدري أن الذكاء لا جدوى فيه.. وحده الجهل معك ينفع!

تغيّر الموضوع:

- إنهم أبطال من حبر، كالرجال الذين ما عادوا موجودين إلّا على الورق.. أتعتقد أنه من العدل أن يظلم الكاتب الشخصيات الأخرى في روايته من أجل الحفاظ على سمعة بطلها.. فيؤمّن لها عشق القرّاء دون مقابل؟!

- إنها معادلة الكتّاب.. فهم لا يضحّون بشخصيات رواية من أجل بطل فحسب، بل بأنفسهم أيضاً..حيث يكتبون لتلك الشخصية الوهم خلوداً أدبياً على حساب

خلودهم الخاص.. هم لا يطمحون بالشهرة بل يعشقون أبطالهم إلى حدّ الحقيقة.. حد الموت.. مات شيكسبير لكن روميو لم يمت! إنه ثمن العظمة، أن يموت الكاتب ليحيا البطل..

أضفت:

- ومن قال لك أنّ المعادلات وجدت كي تكون منصفة؟! كما الحبّ يا سيدتي، فلكل شيء معادلة.. غير عادلة.

فكّرَت:

- ماذا تقصد؟!

- الرجال ينقصهم التكبّر، والنساء ينقصنهن الكبرياء

وواصلتَ أمام اندهاشها الساخر:

- لا عدل منذ اليوم الأوّل.. منذ تلك التفاحة الحدث.. فالله كان يدري حتماً أنّ شجرة الموت والحياة كانت الوسيلة الوحيدة ليرسلنا إلى حيث نحن، كتبرير مسبق على خطيئة لم نقترفها.. هذه معادلته التي أخاف أحياناً أن أعترف بأنّها ليست عادلة.. وفي الواقع لطالما تساءلت عن سر سقوط الإنسان أمام مقاومته لشجرة.. ما كان السبب يومها، أهي الرغبة؟ أن تشتهي الممنوع حتى ولو كان مجرد تفاحة؟ أم هي بإيجاز لفظي ما قد تحدثه امرأة من فجائع في غضون جملة؟!

- هكذا أنــ. . .

يقاطعها:

- من لعب الدور يومها بذكاء بالنسبة لي أمرٌ سيّان. . أكانت الأفعى أم حوّاء؟ لا يهم ما دمنا ذهبنا جميعاً ضحية النكهة!

أجابت بلهجة متمردة بعد ضحكة قصيرة:

- الرجال. . لا تعرفون محاربة امرأة، فتحاربون تفاحتها. . تقلّبون صفحات ماضيها لأنه ما من شيء في الحاضر يستحق العقاب. . تلومونها. . تجرّدونها من ملابسها وما تبقّى لها من عقل. . تمكثون فيها لتسعة أشهر، ومن ثم تهجرونها أبداً. . تبكي. . تشقى وتموت حية. . لكن في النهاية هي صاحبة التفاحة والوقيعة الأولى!

يضحك:

- أحبّك عندما تغضبين. .

يقترب منها أكثر ويجلس على ركبتيها مقابلاً لعينيها:

- لست صاحبة التفّاحة. . لا. . أنت شجرة تفّاح كاملة. . أنت خطيئتي التي لم أكتفِ منها وجعاً. .والتي أتت على شكل هدية من ثعبان القدر. . سيدتي أريد أن ألتهمك كل مرّة من جديد. . أنت الأفعى وحكمتها. . اغضبي. . واقتربي. . اقتربي. . فسنوات مرّت منذ أن أعلنتك زوجةً سريةً لي. . دون أن توافقي قطع القلب وعده بأن يعشقك إلى

الأبد.. ومرّ الزمان.. مرّ الزمان دون أن أمسّك بلمسة واحدة.. مر الزمان وأنا أنتظرك بثوب الرجولة.. إقتربي إذاً.. فالقلب قد بدأ بقرع طبوله.. تعالي لنبدأ، بمراسم القبلِ!

على مقربة من أنفاسها راح يلتهم شفتيها.. فانتفضت للحظة، لكنّه سرعان ما سمّرها أمامه بعنف رجل يعرف صيد النساء..يداها معلّقتان كلّ على جانب من الحائط خلفهما.. ووحده هو معلّق إليها.

لم تكن فريسته بل ربما فرسه.. يمتطي شفتيها فوق حواجز الرغبة نزولاً إلى عنقها.. قبلة ثانية.

أغمضت عينيها وأنوثتها من الداخل تنتفض.. قبلة ثالثة.

يخلع قميصه ويحتضنها من أسفل ظهرها بقوة اللهب فتعانقه وتعبث بشعره بالاشتعال نفسه علّها تتمسك، علّها لا تسقط.. الرابعة!

هما ما عادا جالسين.. ممدد فوقها هو..

هو نصف عارٍ.. وهي لا شيء يعرّيها.

تمسك برأسه وتعطيه قبلة من عصر يتكلّم الفرنسية، فيزحف بيديه إلى الأسفل نحو ذاك الشيء الذي يرتديه، ويفكّه زراً.. زراً

كنت تتمنى لو تدعك تكمل...

كيف تعبر بك كل هذه المسافة الشاسعة للرغبة غير المشروعة ومن ثَم تقولها: كفى!

التقطت يديك، وراحت ترتب شعرها وكنزتها الشبه مخلوعة..

جلستَ مكانك تستعيد أنفاسك وعلى بعد نظرات منها أخذتَ ترتدي قميصك.. وتفكّر.. هذه الساحرة التي يمكنها أن تستحوذ عليك بنظرات وشبه كلمة، وجلسة حبٍّ غير كاملة.. هذه الممثلة التي تستطيع أن تعرّيك بحجة مشهد ومصوّر لا عدسة له سوى عينيه، أو مخرج كتب القلب مسرحيته.. هل ستكون بطل حكايتها، أم قصة أخرى لفيلم لمّا يأتِ بعد؟!

طبعاً، لأسألة كهذه فلسفة لا جواب لها، ولا يمكنك أمامها سوى أن تقتنع بالغموض وتنتظر المجهول.

كنت تنظر إليها وتفكّر بجنون.. هل هذه هي حقاً؟! هل كانت شفتاها اللتان قبّلتهما منذ قليل؟ هل قررت أخيراً أن تعود، وأن تقف أمامك وتقول بشفتين حافلتين بالإغراء: أحبّك؟ أم هذا حلم آخر ستضعه في الهامش الأحمر إلى جانب كل الأحلام التي لم تتحقق؟!

- أراك تفكّر كثيراً.

- أفتّش عن قول أو مثل تاريخي يشبهك.. فأفشل.
لعلّك لا تشبهين شيئاً أو ما من كلمات تختصرك.

ابتسمَت:

- أو لعلّه تكبّر الرجال...

ثم:

- أو أقصد، على حد معادلتك.. لعلّه كبرياؤهم!

- يا امرأة فقدت بها كبريائي.. تباً كم أعشقك.

وهنا من جديد أتت القبلة.. لا أدري، أهي الخامسة، أم الألف؟ فأنا في الواقع لم أتعوّد عد القبل!

قالت لك قبل أن تغادر يومها:

ـ إذاً أراك أوّل الشهر القادم؟

قلت بتعجّب:

ـ ولماذا بعد عشرة أيام؟ ألا يمكننا أن نتقابل خلال الأسبوع القادم؟

- سأسافر غداً.

وأضافت بحماقة:

ـ يا لي من مجنونة.. نسيت أن أقول لك إنّني سأذهب إلى لندن لسبعة أيام.

بتعجّب:

- ستسافرين! لماذا؟

- رحلة سياحية وأريد أن أذهب إلى كلّيات السينما في بعض الجامعات هناك.

- وماذا لو لم تعودي؟!

تضحك:

- سأسألك: وماذا لو لم أعد؟!

ساخراً:

- أحجز مقعداً على أقرب قدر.. وأسافر إليك.

- أنت مشغف بالسفر كثيراً.. أليس كذلك؟

- وجهتنا تحدد حبّنا للأشياء.. وبالنسبة إليّ، فأنا معك قضيت ما مضى من سنوات مسافراً دون أن أدري ما إذا كنتِ وجهتي الأخيرة أو إذا لم أكن سوى عابر منك إلى قدري الأبدي.

- لماذا يعنيك الأبد بالذات؟! إنه وهم الناس العاديين والذين خسروا أحلامهم، كانوا كأبطال الروايات، فالأبد لا يعني لهم شيئاً، لأنه ببساطة غير موجود.. هم مميزون دوماً، لهم الحق بالبكاء دون أن تطالهم محكمة الرجولة الشرقية، كما أنّهم يحظون دوماً بأكثر من قصة وأكثر من حلم.. أحب حياتهم!

- لكنهم دائماً يموتون قبل موعدهم مع السعادة بأسطر، أو بكلمة لم يكونوا قد توقّعوها هي بالذات. وأنت مباغتة لتغيّر كل شيء.. ودون غيرهم من سائر الناس، فهم يموتون

أكثر من مرّة أيضاً.. في الواقع كما الشهيد الذي يموت أولّا أمام عشق الوطن، ثم في حضرة الفراق، وأخيراً أمام رصاصة.

ثم:

- أعجبتني فلسفة الرجولة والبكاء.. هلّا سمحتِ لي أن أضع رأسي على صدرك لأبكي.. إلى الأبد؟

تتجاهلك:

- لنرتح إذاً، ما دمنا لسنا أسرى رواية ما، أو شهداء حرب.. فالأسطر لا تفصل بيننا وبين الموت.

- ولكنني متّ بك من قبل الكلمة الأولى! مهى سيأتي يوم تدرين به أننا كلّنا شهداء...

تفتش عن قول تاريخي يسكنها.. فتفشل.

وهي، كما روما.. كل الطرق تؤدي إليها!

جاء اتّصالها عند السابعة صباح الاثنين ليوقظك من نومك:

ـ هل أيقظتكَ؟

ـ لا.. ما زلت نائماً بك.

ضحكَت قبل أن تقول:

ـ سأتوجّه الآن إلى المطار.. هل توصيني بشيء.

ـ انتظري، سأقابلك هناك...

قاطعتك:

ـ لا.. لا، لزوم لذهابك إلى المطار.. إنها فقط سبعة أيام.. لن تكون طويلةً بقدر ما تظن.

ـ بل سبعة أزمان.

تذكّرت لحظتها حديثاً قديماً لكما.. عندما قلت لها إنّك عندما تكون بعيداً عنها، تمرّ الدقائق ببطء واستفزاز كأنّها سنين.. أمّا عندما تكون بجانبها،فيهرب الوقت بجنون، حتى تصبح السنة.. ثانيةً واحدة.

غادرت لبنان إلى لندن.. وكنت أنت تنتظر عودتها كي تغادر عمر الانتظار..

سبعة أيام كانت عمراً بأكمله.. يوماً بعد آخر.. أخيراً ستعود.

ليلة بعد أخرى.. أخيراً ستأتي سيدتك.. ستدخل منزل أهلها.. ستقول لهم إنّك أحببتها بجنون.. ستطلب يدها منهم، بل جسدها.. ستعدهم بأنّك ستؤمّن لها حياة شاهقة.. سعيدة.

أخيراً ستعود.

ستسألها: مهى، هل تقبلينني زوجاً لك؟

وسترتبك هي بعض الشيء، لتقول بخجل: أحبّك.

يا للجنون.. ما أجملها هذه اللحظة التي ستقبّل فيها شفتيها بعد سنين من الجوع عن قصد.. والحرمان!

متى تعودين سيدتي؟
قريباً سيجلس بمحاذاة شفتيك.
متى ستعودين؟

***

يأتيك الفرح مواربأ خلف أبواب الحزن.
يتسلل إليك حلماً، وتهدر أعوام من عمرك من أجل جعل ذلك الحلم الذي لا يتعدَّى لحظات، حقيقة عمر كامل.

ثَمة شقاء لا يسمح لك أن تعيش، ولا يحرّرك كي تموت.. هو حين تحاصرك الدنيا بين قضبانها.. هو حين لا ترى سوى سيل الدموع.. هو حين تعيش على أمل لتنتهي مخدوعاً.
مرّت الأيام السبعة على عجل.

عادت من رحلتها..وكان في صوتها سرّ غامض، صباحاً قالت لك عبر الهاتف:
ـ متى أراك؟
ـ اليوم إذا شئت؟! نلتقي في المقهى..
قاطعتك:

ـ لا.. أريد أن نلتقي حيث نكون وحدنا معاً.. في منزلك ربما..

ـ كما تريدين..

ـ إذاً.. سأراك اليوم.

هل تصبح السعادة حالةً جنونية؟ وهل كنتَ تعدُّالدقائق لتفتح الباب عليها بجنون؟

وضعَت قبلة على خدك وهي تدخل المنزل.

- كيف لندن؟!

- جملية جداً.

سألتها:

- هل تغار المدن من جمال النساء.

لا تجيب. سؤال آخر:

- كيف أنتِ؟!

كانت تبدو حزينة وأنت لا تدري لماذا.. تسألها:

- ما بكِ.. هل حدث خطب ما؟!

- كلا أنا بخير.. كيف حالك؟

أجبت مبتسماً:

ـ مهى، اشتقت إليك.. إلى براءة عينيك.

سألتك:

ـ هل تعتقد حقاً أنّني بريئة؟

باشتياق:

ـ أنت بريئة من كلّ شيء حصل بي. لست ذنبك، بل أنت ذنبي.

علّقت:

ـ رغم براءتي.. في كلّ شخص مررت عليه، وجدت نفسي أقتل شخصاً آخر.. مررت على أكثر من رجل، وكنت أنت الرجل الوحيد الذي أقتله كلّ مرة.. أنا مدينة لك بأكثر من حياة.

ـ مهى.. لا تقولي هذا.. أنت مدينة لي بالسعادة التي ستمنحينني إيّاها من اليوم فصاعداً.. قتلتني أكثر من مرة، ولكنّك اليوم ستحيينني إلى الأبد.. لماذا أنت حزينة هكذا؟ لقد سامحتك على كلّ شيء.. غداً سأذهب لأطلب الزواج منك.. وأنا متأكّد من أن أهلك سيوافقون.

ثم تواصل ببهجة وسعادة خيالية:

ـ أريد أن أتزوّجك أكثر من مرة.. أريد أن أقبّلك في المعبد، وأن ألبسك خاتماً في حضرة شيخ، ومن ثم أُخلع عنك كل شيء عندما لا يحضر أحد.. أريد أن أراقصك فوق الجمر في أراض أفريقية، وأمضي ليلتين لقطف زهرة عن سفح جبل، أو إحضار ريشة نسر.. أريد أن أتزوّجك بمدنية دون أي روابط شرعية.. هل سبق وأحبّك رجل بجنون الـ.. نعم أقبل؟!

انهمرت بالبكاء، قالت:

ـ لا.. أنت لا تفهم.. أنا لا يمكنني أن أكون لك. أنا لا أستحقّك.. ستجد فتاتك يوماً.. ستحبّها أكثر مني.. هي أيضاً ستحبّك كثيراً. ستستطيع أن تحظى بالسعادة قربها.

انصدمت عندها وانهالت كلماتها كصاعقة ضربت كلّ جسدك.. وقفت مذهولاً لدقائق طويلة، وغاصت عيناك بخيبة.

قلت:

– مهى عن ماذا تتحدثين.. قولي لي هل هناك أمر ما؟

أخرجَت من جيبها بطاقة ووضعتها على الطاولة:

– سأتزوّجُ نهار الخميس المقبل.. أتمنى أن تأتي.

إذاً، عادت حبيبتك بعد رحيلها لتلقاك.. عادت إلى زفافها تدعوك.

– أين التقيتما؟

وهي لا تزال تبكي:

ـ في لندن.. ولا أدري لماذا...

مزيج من الخيبة.. والحزن.. والمرارة.. والغضب.. والهزيمة.. والنقمة.. والحقد.. والجنون.. كلها انهالت عليك في لحظة واحدة.

قلت لها بلؤم وغضب:

ـ لا أدري لماذا أصبحت أكرهك إلى حدّ الجنون، وإلى درجة الموت.. هل فقط لأنّني كنت أحبك بجنون، وكنت مستعدّاً لأفعل أيّ شيء من أجلك.. حتى الموت؟

صمتّ بعض الشيء.. ثم أضفت بلهجة عنيفة بعد أن نظرت إلى صورة لها علّقتها على الحائط، وكأنّك ما عدت تخاطبها، بل تخاطب صورتها:

- لم أعرف يوماً بأنني سأشهد سقوطي أمامك وبأنك مثواي الأخير وبأنني معك وحدك سأستعمل الفلسفة خيبةً: وراء كل رجل حزين.. امرأة!

أتت من خلف الأريكة وهي غارقة بصمت ودموع كاذبة.. التقطت يدك بشيء من الأنوثة وحنان الوداع وحضنتك باليد الأخرى علّها تخفف عنك. ثم قالت بخوف وكلمات مجروحة:

- لا تحزن ستنساني.

توقعتَ أن تضيف شيئاً ما.. تقول كلمات قليلة تعبر بها إلى نهاية هذه القصة التي ما عادت تحتمل الوجع.. لكنّها اقتربت منك أكثر وأوشكت أن تضع قبلة على صدرك عربون اعتذار ووداع آخيراً لحلم لن يأتي مجدداً ذات مساء.

دفعتها عنك بعنف وصفعتها على وجهها لتسقط أرضاً.. علا صراخها.. ثم لففت يديك حول عنقها لترفعها إلى الحائط بشراسة، حتى فارقت قدماها الأرض، وراحت تنتفض كسمكة غادرت للتو المياه.

كانت تحاول أن تقول كلمات متقطعة وتلتقط أنفاسها

وهي تنتفض عندما سقطت اللوحة على رأسك، لتشقّ حاجبك الأيسر، تاركةً دماءً قليلةً تنزف على وجهك.

رحت تصرخ بهذيان:

ـ أيّتها الحمقاء الكاذبة.. أيّتها الامرأة المتحجّرة.. كم أكرهك.. إنّني ألعن الساعة التي عشقتك بها ذلك المساء.. أنت عابثة متلاعبة.. تباً لك! سنوات.. كم مرّ من سنوات؟!

تركتها لتزحف ببطء مع الحائط نزولاً إلى الأرض، واستدرت باتجاه النافذة، باكياً.. كطفل يشهق في لحظة ذعر، ثم التفتَّ لتقول لها:

ـ أفكرتِ يوماً أين كنت سأكون لو لم تأتِ لتعبثي بقدري؟ لتقفي أمام كلّ امرأة عظيمة كانت ستمرّ في طريقي.. وتغيّري كلّ معتقداتي ومبادئي، كلّ تقلّباتي العاطفيّة. أفكّرتِ في كلّ هذا؟

رفعت رأسها عن الأرض قائلة:

ـ سامحني.

ـ اخرسي.. لن أسامحك مهما حييت.. لن أنسى ما أنت فاعلة بي وبعمري.. اتمنى لك الحزن وسنوات حافلة بالخيبة والألم.. علّك تموتين حية!

***

كيف لحبٍّ عاش خلف قضبان الحرمان، أن لا يحقد؟

لا بدَّ لهكذا حب من أن يربي شيئاً من الكراهية داخله، دون أن يدري أصحابه إلا يوم تقع الفاجعة.

ينسى العشاق دوماً أن يكونوا على حذر في ليالي الحرمان الطويلة، عكس المقاومين الذين يبقون على حذر في حالات الطوارئ، يحظّرون التجوال، ويخفتون الأنوار.. صمتاً.

الحرمان طارئ عشقي.

ولذا، على كل تلك العواطف أن تبقى في العتمة، وألاّ تزور الحبيب عندما تنهال عليها قذائف الشوق. عليها أن تبقى مختبئةً من رصاص الرحمة الذي يقتلك دون أن تدري.

ما الذي يولِّد ثورة الحقد سوى شظايا الحرمان على الجسد؟

تريدها.. لا لأنّها تشعرك بالأمان قربها، بل لأنّها كلّ ذاكرتك؛ هي جزّارة قلبك المبتور، وهي أمّ يدك المشردة.

تريدها.. تودُّ لو تضمّها بشفتيك، لا لأنّك اشتقت إليها، بل لأنّها علَّمتك ما الاشتياق.

تريدها.. تودُّ لو تحضنها بيديك.. بقدميك.. تودُّ لو تتغطّى بثغرها اللثيم، وتأخذ الدّفء من شراسة عينيها. لا لأنَّ الطقس بارد، بل لأنّها خلَّفت وراءها أعواماً من الصقيع.

تودُّ لو تنحبس فيها، لا لجمال السجن.. بل لأنّها منفى.

تودُّ لو تقتلك، لا لأنَّ الموت على يدها جميل، بل لأنَّ الحياة من دونها.. عدم.

كيف لك أن تنسى ما قالته لك يوماً عندما سألتها: ماذا ستفعل لو رحلت عنها؟ كيف لك أن تنسى شراسة ذلك الصوت البطيء يقول لك على لحن الانتقام: «سأقتلك».

يا لغبائك.. يا لجنونها!

كنت أنت تمازحها بالحب، بينما مازحت بالحب عليك.

كنت أنت تبتسم بجملة تقول فيها: «ماذا تفعلين لو رحلت عنك يوماً؟»، بينما كانت هي تأخذ الرحيل مأخذ الجد، وإذ بها.. تقتلك.

لعل هناك قرابة ما، تصلها بنيرون، أو لعل إضرام النيران حالة وراثية عندها. ألهذا استمتعت بحرائق الحب؟

هي ورقة من الشمس، مرت ذات صباح وأضرمت الحرائق.. فجّرت براكين من الشوق، وأخرى للخيبة. كم كان يلزمك من الجمر لمواجهة لهيبها؟

ألم تدرِ بأنه ما عاد هذا زمن مسارح روما؟! هي التي لم تتنحَّ وحلمت بأن تكون فرعونة العصر.. أما عادت تدري أن كليوبترا ماتت قديماً وأن أليسار قرطاجة تجلس في متحف ما؟!

كان بإمكانها أن تكون الأسهل، وأن تترك التاريخ فهو في العشق لا ينفع. لماذا أصرت على أن تكون الأصعب؟

لم تكن كباقي النساء.. كانت امرأةً من نوعٍ آخر.. أو ربما، كانت امرأةً.. لا نوع لها.

***

للمأتم ارتديتَ بذلةً سوداء..

إلى جانبكَ مسدس بثلاث رصاصات..

لم أكن أدري يوماً أنّ مزيجاً من العشق والحقد سيجعلانك تحمل مسدّساً في صالة عرس.

ولماذا ثلاث؟!

هل قرّرت أخيراً أن تنفّذ جريمتك وتقتلنا نحن الثلاثة على مرأى من الجميع في حفل زفاف.. أم أنّك استبدلت بي رجلاً آخر اسمه جاد، الذي جاء مبكّراً ليوقظك قبل أن يتحقّق الحلم؟

أم كانت تلك الرصاصات من نصيبك وحدك، ذلك أنّ الرصاصة الثالثة تؤكّد الموت وتحسمه فوراً؟

أنت الذي شاهد كل الفجائع، كيف تقاوم إغراء الفاجعة الأخيرة.. الموت الأخير؟!

جاء خميس الزفاف.. خميس الليلة التي يباركها الله من بين كل أيام الأسبوع.

الليلة.. موعد الزفاف.

عند الثامنة مساءً، سيتوّجها أميرته، ستطأ السجاد الأحمر ملتقطةً يده.

الليلة عند الثامنة والنصف.. كما كتب نزار قباني، وكما غنّت ماجدة الرومي. .سيأخذها بين ذراعيه.. سيراقصها.. سيهمس في أذنها كلمات..

كلمات ليست كالكلمات..

يخبرها أنّها تحفته وتساوي آلاف النجمات..

وبأنّها كنز وأجمل ما شاهد من لوحات.. يبني لها قصراً من وهم..

كلمات تحرق تاريخها، تجعلها...

ستعود إلى طاولتها لتجلس قربه..

أسترفض دعوتها، أم تقبل لتراها تقبّل شفتيه؟

الليلة عند العاشرة. .سيحملان السيف معاً. .سيشبكان ذراعيهما ليشربا الخمر.

كما يفعل الجميع.. الليلة عند العاشرة والنصف، ستتلاقى أبصاركما مجدّداً.. ربما أخيراً.. ستتمنّى لها حياةً سعيدةً..

أسترفض دعوتها أم تقبل لتراها راحلةً معه؟

الليلة عند الثانية عشرة.. سترحل معه في عربته.. سيأخذها أميرها إلى قصره.. ستدخل فسطاطه.

الليلة عند الواحدة ستكون في مضجعه.. ستكون له..
تلك التي جعلت لها بين جفونك سريراً.

وصلتَ إلى هناك بهيئة ناع.. ببذلتك السوداء، بعينيك
الحمراوين.. وحاجبك المجروح.

إنّها الثامنة..

تعالت الأصوات والزغاريد، هتفت القلوب والأيدي..
رقصت الراقصات وطبّل الطبّالون.. نساء انتظرن هذا الفرح
ليضعن كل ما يملكن من حليّ، تلك بفستان أحمر قصير،
وأخرى بالأسود من حرير...

فجأةً..

اختفت الأصوات، وانطفأت الأضواء من حولك..
وقفت وحيداً بينما تحوّل الجميع الى أصنام.

ظهرت هي..

بالأبيض ظهرت..

مشت.. حسنها.. زيّها.. لم يتركا للملائكة صفات.

هيا يا أشجار الكون أزهري..

يا ينابيع الأرض انتفضي..

يا أمطار السماء اهطلي..

أين الكهنة والشيوخ، هيا تعالي وفي محراب الجمال
اسجدي..

اثبتي يا أرض وعن الدوران توقفي..
ها هي أسمى الآيات بالأبيض.. ومن جسده تقترب..
هيا يا شموع انحني، انطفئي.. فمن سلطانها آن أن تخجلي..
أنت يا سيدتي، في عينيه لا تنظري، فهو عن عرشك سقط وانخلع.. هيا ابتعدي، في الأمام حشود تنتظر..
أحياناً أفكر، كيف يمكنني أن ألوم «جادْ» لأنّه سقط أمامها منذ النظرة الأولى؟
ما كلّ هذا الجنون لأراها أمامي بفستان أبيض، أفاضها إغراءً وجمالاً؟ بفستان أبيض سيعرّيها منه بعد ساعات رجلٌ، ليس أنا.

الكلّ يغنّي على ليلاه.. وأنت، لحلم لم ينضج.. تبكي!
الكل يرقص ويتمايل ثملاً.. ولم يحدث للحب أن رأى سكارى مثلك!
توجهتَ نحو طاولتها وكان جاد مشغولاً بتقبّل التهاني من بعض الأصدقاء.
ما استطاعت أن تنظر إليك. قلت:
ـ أنت التي منها ابتديت، وعندها انتهيت.. يقال: «إذا

صادف الإنسان شيئاً جميلاً مفرطاً في الجمال، رغب في البكاء». . منذ لقياك قلبي بكى. .

إنّ القدر قد أتمّ لعبته. . وبينما كنتِ أنتِ القوانين الطبيعية، كنتُ أنا الضحية. . مع كلّ خطوة خطوتها، كنت أموت أكثر فأكثر، لأنّني علمت أنّ تلك الخطوة أبعدتني عنك.

«إن المحبة لا تعرف عمقها إلاّ ساعة الفراق».

أتمنى لو توقف الزمان عند ذلك النهار. . ذلك النهار الذي رميت به قمري إلى. . البعيد إلى الغيب. .

لكنّه لم يفعل. . كنتُ أنا من تأخّر عن الزمان. . وها أنا متأخّر عن العمر بعمر. .

أعتذر إذا كان حبك طريقاً خطأً عبرته في حياتي. . لكن إذا حقاً كان، فأنا لا أريد أن أعبر الطريق الصحيح. . وإذا كان العيش بدونك صحيحاً، فأنا أريد أن أبقى على خطإي مهما طال الزمان.

لكن. .

لا بأس بأن نكسر قوانيننا الخاصة. .

سأكسر قانوني. . سأرحل عنكِ وإلى الأبد. . سأخرج من حياتكِ ومن وجودك. . كانت ذاكرتك في قلبي، وها هو اليوم جرح حاجبي ذاكرتك على جسدي. .

غرقت في صمت طويل وغصت في نظراتها ثم قلت:

- مهى. . أنت حلمي الذي لم يتحقّق.

البعض من تأثير الخمر بدأ يحلم، والبعض على وقع الموسيقى يتمايل. حتماً، كنت وحدي أنظر إليكما.

ثم أضفت:

ـ هنيئاً لكِ الولادة الأولى، هنيئاً لكِ الزفاف الأوّل. كنتِ لي الموت والمميت، والآن أصبحتِ الميت. .

وداعاً!

***

لست أدري كم مرة يمكن للكلمة نفسها أن ترديك أرضاً كلّما حاولت مواجهة الحب واقفاً؟

وكم مرة يمكنك أن تنتفض بعدها على شجاعة واستعداد، دون أن تكمل حياتك مبتوراً؟

بمنطق أسلحة الحب الشامل، وكما الرصاصات الكاتمة، فنحن كلّما تقدّم الحب بنا وكبرت لائحة هزائمنا، لا نمضي سوى مثقلين بأطرافنا، ورصاصة واحدة. . كانت سر سعادتنا!

وبعد ما مرّ بنا في العصور المظلمة نكتشف الفلسفة خيبةً:

وحدها رصاصة الحب تحييك أولاً. . لتقتلك أبداً.

كأي ضحية في غرف العناية الفائقة للحواس، كل حب يحتاج إلى جرّاح من الطراز العشقي الرفيع، لم يرفع يده مقسماً قط، ولا أطروحة له في سجلّات الماضي.

ستكون عندها أنت قسمه وأول صفحات كتابته.

ويعترف: أحبّك!

والذي لا لغة لك سوى عينيه، متى يفهم أن الكلمات لا تزيدك سوى سقوطٍ.. وبأنها كل ما تريده الآن هما شفتاه.

يقترب منك، وبشرعية طبيب يضع على عينيك تلك القبلة التي لا ترى بعدها شيئاً.

يتسلّق سلّم شهوتك نزولاً إلى شفتيك ببطء. ورغم السلاسل التي تقيدك إلى سرير الأيام، كبركان من لهب ينتفض.

وأنت المثقل بالجراح وأعضاء مبتورة.. في لحظات نشوة الخلود تلك، تصرخ وجعاً. وتتذكر! إنّها الحياة: متعة وألم.

تشهق.. تختنق.. وتلك الأوتار بينك وبين آلة وضعت على رفّ النسيان تنقطع.

تطلق صافرات الإنذار، والخطوط الرفيعة على الشاشة السوداء لقلب أتعبه الرحيل.. تبدأ عدّها العكسي.

لا واقي.. لا متعة مصطنعة.. فأنت الذي لكثرة ما ضوجع، ما عاد ينجب!

ينتهي كل شيء، وتستيقظ بعد أيام في غرفة مقفل بابها، غطّاها الغبار.

ماذا حدث؟ ما عدت تذكر.

وعلى يمين خيبتك تنظر إلى نافذة شبه مغلقة علّق عليها قميص أبيض. تقترب منه كمن يقترب من المحال لتجد إلى جنبه ظرفاً فيه كلمة.

وتستنتج.. قد حدث للحب أن عرّاه هو أيضاً، لكن هذه المرة بك أنت. وخرج من نافذة الجنون ومضى يعشق مسروراً.

لعلّه الحب إذاً، أن تتنكر يوماً في زي طبيب، أو تلطخ نفسك بدماء ضحية.

هو أن تكون مجرماً بحق نفسك، وتغتصب من حولك بالأحرف.

أن توجه المسدس بشكل عشوائي.. وتطلق الرصاصات منه انتقاماً أو تنطق بكلمة.

هو أن تدري أنّ في الحب وحده يصبح الموت جميلاً.. وأن تؤمن مهما حييت، أن الكلمة، كما الرصاصة.. يمكنها أن ترديك قتيلاً.


أنّات

مهى...

مهى! كيف لي ألّا أحبّ من الأسماء ما شابه اسمها؟!

تلك التي حملت في عينيها لون فاجعة لم يتذوقها الرجال.. وشيئاً من تفاحة لم يتناهشها آدميّ من قبل.. هي الحقيقة الاحتمال، والعشق المحال. .ألم يكن لديها رهان أقوى من ترك القلوب وراءها أرضاً؟!

تمرّ الصباحات وأصل إلى الفصل الأصعب.

فذلك القطار السريع الذي حملنا على عجل، وراح يخترق المسافات والأعمار، أوشك أن يصل إلى الفراغ، إلى اللا شيء.

كان عليَّ في البدء أن أدري أن هذه الرحلة ليست سوى حب عابر، وصداقة عابرة.

فما الذي جعلني أعتقد أنَّ كل ما سيأتي بعدها هو زمن عابر؟

أنا الذي أتى لينتشلك من مأساتك، أريد الآن من يمدُّ لي يد المساعدة لينتشلني من دوامة الذاكرة. فالآن بدأت أدري أنّنا وجدنا لنخسر أولئك الذين نحبهم.. فكيف بغير

ذلك ندري قيمتهم، وكم كنّا أثرياء بهم. وعندما يضاجع العذاب أنوثة عواطفنا وبراءتها.. يكون للحبّ عندها مولود مريض، اسمه.. الحقد.

لا بد أن أحقد إذاً.

ولا بد لي أن أنسى كل الذي حصل بيننا منذ أكثر من عقد. وأحمل متاعي وأمضي دون أن ألتفت إلى الوراء. أو أسرق نظرات من صورة أناس كانوا يتربصون لي في كل زاوية، ووراء كل حائط، أو على سكة كل قطار كنت أتوهم ركوبه للهرب.

أستعجل رجلي، وأركض بعد الشيء. فاليوم تعلمت أن الوقوف على الأطلال والبكاء لمعطف أو لوحة عابرة هي متعة رجال الصحراء، وأصحاب الشِّعر المقفى. فغدوت أعي أنّ ما من شيء يستحق الندم، وما من آخر يستحق الهرب سوى الموت.

كلماتي غير مقفاة وما عدت أدري كيف يُكتب الشعر.

مسرعاً أمضي.

مهلاً.. لا لن أجتاز الماضي مهلاً.. أسرع كراقص أتعبته الخطوات وحان للموسيقى أن تختنق. فالعمر مرّ يا صديقي ولم أعد أملك وقتاً كافياً أضيّعه أمام جثمان ذاكرتنا.

للوقت قيمته كما الحب.. كما الموت.

ويحدث أن أنسى لعبتنا المفضلة آنذاك. كنّا نتصارع كما في المسرح اليوناني حتى يشرف أحدنا على أن يختنق،

وكنت ترمي بي على الأرض خاسراً كل مرة.. ولم يكن أمامي سوى أن أعتذر على لا شيء. وما انتصرت عليك يوماً، لأنك ملكت متسعاً كافياً من الصبر كي تكون الأقوى.

دون أسباب، دون إعلانات مسبقة، قرّرت أن تتغيّر وتصبح شخصاً آخر. ربما لأنك حينها قررت أن تنتهي منها ومن كلّ ما يذكّرك بها. اقتنعتُ بالواقع، ورحت أعيش خاتمة أيام صداقة، كانت حتماً الأجمل.

حاولتُ كثيراً أن أعيد الأمور إلى مجراها.. أن أمنع ذكريات أيامي، ولحظات طفولتي من أن ترحل عبثاً.

لكن الحياة تجبرك على أن تحمل حقائبك وتمشي بها.. كلّنا قوافل.. كلّنا رُحّل.. كلنا محاربون..

محارب دون جعبة أنا، فكيف سأواجه قدري دون جراح؟!

محارب أنا لم تمرّنه الكتيبة على تجنّب فخاخ الذاكرة، ولم تحذّره من أن خلف كل متراس ثمة جثة تنتظر البكاء!

من قال إنّ المحاربين لا يبكون؟ وحده الذي فقد عينيه أعلن إضراباً مفتوحاً عن البكاء.

ما زلت أذكر عندما تحدثنا لآخر مرة. قلت لي:

- عليّ أن أنسى كل ما في الماضي وأفتش عن أناس جدد أنتمي إليهم.. عليّ أن أبدأ من جديد.. إنها مهزلة الحياة.. فنحن لا يمكننا أن نتقدم دون أن نقتل شخصاً أحببناه، حين نعبر عليه كجسر إلى شخص آخر وكأنه طريقنا

الوحيد إلى المستقبل. معادلة! لنحيي أناساً داخلنا علينا أن نقتل آخرين.

- لا تقل لي إنّك نادم على كل ما حدث بيننا...

قاطعتني:

- لا يمكننا أن نكسب دون أن نخسر.. نحن دوماً كضحايا الحرب.. يكسبون حياتهم، لكنهم كثيراً ما يخسرون عضواً ما.. كيد ما عادت موجودة تذكرهم بقيمة الأخرى.

- لا قيمة لما فقدناه! وحدها الأشياء التي تبقى هي الأكثر ثمناً...

- بالطبع.. لا شيء لدي يستحق العناء.

حُسم كل شيء.. ولن أتوسل الله على أن يبقيك أكثر. كنتَ مصراً على الرحيل وبعد كل الذي حدث.. وجدتني ابتسم بعض الشيء.. أنا الذي لم يخطئ حتى يومها.. وأردت لك السعادة كما لو كانت سعادتي.. أنا الذي كتب كتاباً كاملاً من أجل امرأة، ليست لي، بل حلماً لك. فكيف أتصور نفسي دون أن أمضي كضحايا الحرب الذين فقدوا شيئاً فقط ليعرفوا كم هم باهظو الثمن بما بقي منهم؟!

أنا الرجل الذي تعالى على كبريائه وأصبح متكبراً.

قلت:

ـ كيف لك أن تحدث مجزرةً بحق أجمل ما قدّمته لك الحياة؟

طبعاً.. لم تجب.

يحدث اليوم أن أذكر يوم كنت تطلب مني الوعود، وكنت أصدّقها بغباء!

«عدني، لن يفرِّقنا شيء»

لا فارق بيننا سوى كتاب.. وأسطر قليلة تفصل بين الإخلاص.. والخيانات.

بيننا أسطر وكلمات لم تكتب.. وامرأة.

إن هي ذهبت.. ذهب كل شيء!

ظننتك يومها ستضيف بضع كلمات.. تمنيتُ لو تقول كلمات ما.. لكنك لم تقل شيئاً!

كنت أمشي متضارب الخطوات، متوهماً أن صوت ما يناديني كي أقف، كي أغيّر رأيي.. وكنت أنتظر.. كنت أنتظرك كي تركض خلفي كما في الأفلام الهندية التي كنّا نشاهدها في صغرنا لتقول لي: أعدك.. لن نفترق.. أو أرجو ألّا ترحل. كنت أتمنى لو تفعل أي شيء كفرصة أخيرة لقدر لم تكن تريده علّك لا تندم..

كم انتظرت فترتها؟

هل أيقظ الرحيل يومها شيئاً فيك؟

لم نتصافح. فالرجال لا يحتاجون إلى مراسم وداع تنبئهم بأن ساعة الفراق قد دقّت، ولا ثمة وقت للمصافحات والكلمات الجميلة التي لا تجدي معهم نفعاً. يريدون للفراق دوماً وقعاً صاخباً ومدمراً كقصصهم. وهم أيضاً يدرون أنه ما

عاد هناك من لحظات يضيعونها جلوساً أمام قدر الرحيل، فالأجدر بهم أن يحسموا الأشياء وقوفاً، وربما صمتاً.

لكن، للأسف، فقد جرت السفن مرّةً أخرى عكس ما نشتهي.

هكذا تنتهي القصص إذاً، ثمة من يسقط أمام المعادلات المتفاوتة للحب ويقرر أن يتخذ منك هدفاً. يقف خلف مسدّسه بعين نصف مفتوحة، ووسط الفوضى تتساءل: ماذاً تراه فاعلاً؟ هل عليك أن تقفز بين الرصاصات وتقنعه بطريق للعودة وبأن الحاضر المجهول لا سعادة فيه، وبأنه وحده الماضي جميل؟

لا.

يوماً ما ستتعلم بأن الحب لا يعرف طريقاً للعودة، وللأشياء حقّ مطلق بأن تنتهي لأنها كما الناس.. تتغير دوماً.

عندما يطلق الزناد وتطير الرصاصات عشوائياً، كل ما عليك فعله هو أن ترقص أمام قاتلك رقصة يذكرها، وتعطيه لحظات أخيرة لا ينساها أبداً. وفقط، لحظتها تدري أنّ قدر الرجال لا يُستقبل إلا بابتسامة. وفقط يوم تسقط متألقاً يمكن للموت عندها أن يصبح جميلاً.

اكتشفت اليوم، أنّ الإنسان لا يعيش مع من يحبّ قصةً واحدة فحسب.. هناك أولى نعيشها عندما نلتقي بهم، تلك

التي نشهق أمامها، وننسى أنّها لن تدوم سوى دقائق معدودة من عمر الحب. أمّا الثانية،فهي تلك التي تبدأ بعد الفراق، تلك الحافلة بالخيبة والشقاء، وهي التي ندري بها كل شيء، وما يعود باستطاعتنا فيها شيء. وهي في الواقع القصة الحقيقية والأكثر ألماً.

عندما أعود إلى صفحات الماضي، في فصول حياتي، يحدث أن أجد أنّك الإنسان الوحيد الذي أحدث أحداثاً لا تحدث. على مرورك أضرمت النيران ورقصت البراكين، وبك جرفتني الزلازل إلى أكثر من مكان.

عندما أعود إلى الوراء لأدرس علاقتي بك، أواجه استنتاجات متناقضة، ومزيجاً من المشاعر الغامضة. أنا الذي عشت معك جميع الأحوال، كيف لي أن أحدّد نظرتي تجاهك بشعور واحد.

تماماً كأوراق بائسة تفيض من سلة مهملات.. تفيضاً لأحزان من سلة مشاعري.

كان قدرنا.. قدر الفاجعة.

عواطف متضاربة تجتاحني عندما أذكر اسمك، ولا بدَّ أن يكون للحقد أوّل الكراسي إلى طاولة المشاعر تلك.

اليوم، ما عدت أحترمك، وما عدت مخلصاً لك، لكنّني فقط، مخلص لقصتي معك، تلك التي عشقتها إلى حدّ الجنون.

وحده الذي لا يعرف كيف يسعد هو الأكثر فقراً!
للسعادة ثمنها، كما الحياة والحب.. ولكنها ما زالت الأقل كلفةً في ما بينها. مادام هنالك أناس يأخذون الحب مأخذ الذاكرة، والحياة مأخذ الأبدية.. ما دام هنالك من يعيش لقدرية الفلك، ويتخذ من الحزن وليمة، سيبقى إذاً، أولئك الذين يأخذون السعادة مأخذ الوهمية، غافلين عن أنّها في داخلهم.. حيث الضمير.
فالسعادة لا تقاس بما فقدناه أم ما أوشكنا نملكه.. لا بمن خاننا، أو أراد أن يكون لنا مخلصاً.. لا بمن قتلنا، أو هجرنا.. أو صنع لنا من الكلمات قصراً.
سعادة الضمير كانت سعادتي.
كلّ شخص يترك علينا علامة بطريقة أو بأخرى، تفيدهم حقّهم بأنهم مرّوا من هنا، على أجسادنا، على قلوبنا. فتغذي سعادتنا حسب علاقتنا بالأشياء.
وحده الذي عشق وأخلص يعرف كيف يسعد.
على أيّ حال، بعض العلامات لا تبقى حتماً، تكون كدمات أو جراحاً، فيخيطها الزمان لترحل على عجل. منها ما يحفر على أجسادنا في الأماكن التي لا نراها. فلا تعنينا.
لكن.. ثمة أخرى تحفر على وجوهنا، على صدورنا، لتفاجئنا مع كل نظرة مرآة، وتفضحنا عند كل شخص سينضم إلى لائحة انتصاراتنا.. أو انهزاماتنا.
ألهذا سقطت تلك اللوحة على رأسك لتشق حاجبك،

ويفضحك مع كل امرأة ستأتي بعدها؟ لتبقى ذاكرتها على جسدك بعد أن كانت في قلبك؟

لماذا قررت ذلك اليوم أن أضع وشماً باسمك على صدري؟

بكتاب.. ووشم على صدري الأيسر.

أنفضح بفخر.

وبدأت الآن أدرك أخطائي، واحدةً تلو الأخرى.. الآن، بعد فوات الأوان.. بعد أن دخلت الفصل القاطع، الذي ما عدت به أستطيع شيئاً سوى القليل من ملح الانتقام.

فدون أن ألوم نفسي ألوم ليلة من الماضي.. كانت سبب كل شيء، وأتساءل من جديد: أيمكن لسهرة ذات يوم دامت ثلاث ساعات، ولورقة أكلتها النيران آنذاك، أن تغيّر حياتي وتتحكّم بجميع تقلّباتي؟

أيمكن لقصّة حبّ لم تكن قصتي، أن تأخذني بجنونها المستتر، وتمنعني من أن أجد الفراغ لنفسي، لأحبّ، ولو حتى مرّة واحدة؟

***

«غداً يوم آخر».

لقد نسي صاحب هذا الشعار أن يضيف: والذاكرة ما زالت نفسها.

إذاً.. إنّه صباح جديد بالذاكرة نفسها.

أو ربما، صباح جديد على حادثة جديدة، ستصبح في أحد الأيام.. ذكرى.

كنت قد استيقظت، وهيّأت نفسي بشراهة لأتابع كتابة هذا الفصل، عندما قرأت خبراً عاجلاً على شاشة التلفزيون: «لقد تمَّ محاصرة أسطول الحرية المتجه نحو غزة بهجوم إسرائيليّ أسفر عن استشهاد ستة عشر فرداً من طاقمه».

دون أن يستقبلني ذلك الصباح بفنجان قهوة،استقبلني التلفاز بفنجان صدمة. جلست ورحت أرتشفه بحزن غامض، ورحت أشاهد الخبر وصور التنكيل والمذلة.

إذاً، ها هي ذي مجزرة جديدة.. وها هم العرب، بالثبات الضميري نفسه.

ها هو أسطول الحرية ينزف ويغرق أمام عيونهم الشاخصة إلى اللاّ شيء. وأطفال غزّة المحاصرون ينتظرون على الشاطئ وصول مواد غذائيّة وأدوية تدفع عنهم ثقل الجوع والوجع.

إنهم العرباء إذاً.. أو كما قالت "غادة السمّان".. إنهم الغرباء!

كان أبي يقول دائماً: «مسكين عرب».

ولعلّه هو الأخير نسي أن يضيف على قوله جملة: إلى الأبد.

إنهم المساكين.. مُحمّلين بحقائب وهمية تدعى

العروبة.. مملوءة بذاكرة ثقيلة وأحلام شاهقة.. حقائب ثقيلة الحمل، وباهظة الثمن.

أرتدي قميصاً وربطة عنق قبل أن أذهب إلى حفل لم أحضره منذ سنوات.. وبعد أن انقطع كل شيء بيننا، أخاف للحظة أن ألتقي بك.. فأرتبك، وعلى مشارف تغيير وجهتي أصمت للحظات. ثم أقرر!

ليحدث ما يحدث.. فالسنوات مرّت وما عاد شيء يعنيني.

كان ذلك مساء الأمس، التقيت في الحفل صديقاً قديماً، قال لي وهو يخبرني عن رأيه بآخر الأوضاع في لبنان:

- الوطن كلّه ذاهب إلى العراك.. أعني، إنه التوقيت الذي يدخلون فيه إلى قلوبنا شيئاً من الخوف.. قد حان لأحلامنا أن تقف من جديد على حافة الموت، أو ربما الانتحار.. سنجتمع نحن وأوهامنا الوطنية على كأس خيبة، ونأكل رفات طموحاتنا.. بينما غداً سيجتمع المخرج الكبير مع زملائه في أقرب عشاء للصلحة.. ويبقى الشعب الغبي مصفقاً بحرارة لقرارت زعمائه.

قلت:

- إرادة الشعوب قد تنام، لكنها لا تموت!

علّق بشيء من العصبية:

- تباً لأناس يركضون خلف حاكمهم كالكلاب.. فليذهبوا وإياه إلى الجحيم.. تباً لأمّة تنزل إلى الشارع من أجل تلبية نداء زعيمهم، ولكنهم لا يتحركون من أجل رغيف خبز.. تباً لأمة نشيدها مسروق وأراضيها مستثمرة من الخارج.. تباً لبلد نغنّيه عشية الاستقلال ونحن ما عدنا ندري، كلّنا.. لأي وطن؟!

كلنا لأي وطن كانت الجملة التي توقفت عندها طويلاً.. ولعلّني ما زلت حتى اليوم واقفاً.

قلت له ونحن ننتقل من طاولة إلى أخرى وأنا ما زلت خائفاً لأنني لا أريد أن أراك قبل خمسة أيام من إقلاع الطائرة بي إلى هوليوود:

- كان علينا منذ الأزل أن ندري بأن الحرية لن تكون بمتناول جميع البشر، ذلك فقط لأنهم لم يكونوا جميعاً مستعدّين للوقوف من أجل الحق بوجه الباطل أحراراً.. ولذا عليم أن يتعلّموا أن الحريّة لا تُعطى.. بل تؤخذ بالقوة!

ثم أضفت:

- في زمن ما عادت فيه الأسود تقتل من أجل البقاء لفرط ما وصلها من قيم إنسانية.. في زمن تصوم التماسيح فيه أنفةً وينتحر الذئب شرفاً.. لدينا عربان لم يرثوا من رجل الصحراء سوى جاهليته، وربما تمسحته.. رجالات عرب لا الجوع والمشرب يعنيهم لكنّهم قد يأكلون شعباً كاملاً.. من أجل كرسي!

من حديث إلى آخر كنّا ننتقل.

ـ أعجبني كيف أنّك بعد أن مر العمر أصررْتَ أن تذهب إلى لندن وتدرس الإخراج.. وها أنت حصلت على شهادة في أربع سنوات.. كأنه قدرك!

قلت:

ـ أو حلمي!

ثم أضفت:

ـ سأذهب بعد خمسة أيام إلى هوليوود.. ربما قدري ينتظرني هناك!

أبدى اندهاشاً واضحاً قبل أن يعلّق:

ـ إحذر ألا تصبح أحلامك أكبر منك.. قد تحدث فاجعة.

قلت له:

ـ رجاءً.. أعد قول تلك الجملة أريد أن أضيفها إلى روايتي عندما أعود إلى المنزل.

ضحك.. ودوّنتها.

كنّا نتحدّث وشيء ما داخلي كان يدفعني لأسأله عنك.. هل تزوجت أحداً؟! هل شفيت من مرضك وحققت أحلامك.. كنت أريد أن ألقي عليه أسئلة دون أن أدري بما قد يحصل بي عندما يجيب عليها..

من أي زاوية سأتلقاها، ومن أي علو شاهق كانت ستقفز اليّ؟!

وأنا الساكن بين وطنين، الأول ولدت فيه فرفضني، بينما الثاني منه ولد حلمي.. فأغراني! أنا الساكن بين امرأتين، الأولى هي أمّ أعطتني الحياة، وصعب عليّ توديعها أكثر من مرة، ولكنني ما زلت حتى اليوم أشعر بلهب الفراق الأول!بينما الثانية هي امرأة ذاهب إليها أنا مختبئاً بحجة مخرج أو ممثل أمام عدسات هوليوود.. قد تقتلني.

يا لغباء الإنسان.. فهو يتحرش بالماضي بعد أن يظن أنه نسي كل شيء، وإذ بالماضي يأتي مسرعاً عبر السنين وكأن شيئاً لم يحدث.

لكن هذه المرة كان القدر.. مستسلماً أتى إليّ، وأنا منهمك بكتابة الفصل الأخير من رواية لم أكن أعرف خاتمة لها.. أتى القدر يومها على طبق من فضة ليغيّر وجهة روايتي قبل أيام معدودة من انتهائي منها!

وكأنه كان يدري أي السطور أحتاج لتجميل نهايتي وقتل أبطالي داخل كتاب وإن كانوا أحياء. وأسأل نفسي:

عندما أنتهي من كتاباتي.. هل سأنتهي منك حقاً؟

الكتاب قبر وها أنا أحفره بالكلمات، بشيء من الصمت.. أصنعه من رخام الحب، وخشب الحنين.. أرصّعه بألماس الذاكرة.

أحنط أبطالي بسائل من النسيان، وأطمرهم في مقبرة الماضي.

لكنّني أخاف لشدّة فرحتي أن أنساهم خارجه.. وعندها ستُعاد الكرّة.

كم من كاتب نسي أبطاله خارج كتاباته.. وكأنّه لم يكتبهم حقّاً، إنما استحضرهم للذكرى فقط.. وكم من كاتب أغلق الدفتر على نفسه بعدما انتهى من الكتابة دون أن يخطو خارجه.

لا.. لن أنساك في الخارج. سأضعك داخله، وأغلقه بإحكام..

على طبق من سطور جاءني القدَر هذا اليوم، مستسلماً، فشعرت بأنني من جديد استسلمت للماضي وكدت أقف على كتف ذاك الرجل باكياً عندما قال لي بعدما سألته عنك:

- لقد اشتد به المرض من جديد في السنوات الماضية، وكان يضعف شيئاً فشيئاً.. كانت الأيام تمر مسرعة وكان يبدو بأنه فقد كل شيء.. حتى قدرته على أن يأخذ نفساً كل دقيقة كما سائر الناس!

أفتح فمي مصدوماً وكأنني سأصرخ:

- لا!

فيتجاهلني ويكمل:

- وقد خضع لعملية منذ ثلاثة أشهر، لكنها لم تجدِ نفعاً، لم يتمكنوا من استئصال المرض.

- لا...

- فعاد إلى المنزل ورفض الرجوع إلى المستشفى متمنياً على الجميع أن يتركوه ليموت بسلام.. وكأنه حقق كل شيء وأراد أخيراً أن يجرب الموت.

ينقطع نفسي:

- لا تقل لي إنّه مـ....

- بعد ذلك بعدة أيّام استيقظت والدته في الصباح لتراه ممداً بفراشه كطفل لم ينم منذ أيام.. فابتسمت وظنّت أنه نائم..

- لا!!!

تسقط دمعة مسرعة وأرمي الكأس من يدي على الأرض، فتنكسر.

- لم يكن نائماً كما توهّمت أمه.. نُقل إلى المستشفى ذلك المساء بأعجوبة، فالطبيب يقول بأنهم لو تأخروا دقائق لتوقّف قلبه ومات.

- لم يمت؟!

- كلا.. في الواقع لا أدري.. هل يعتبرحيّاً؟!

- ماذا حدث؟

يقول متردداً:

- لا شيء! زرته البارحة كان بحال أحسن.. ويقول الطبيب الجديد إنّه بحاجة إلى عملية خطرة بعض الشيء.. لكنّها الأمل الوحيد!

أسأل:

- ولماذا لم يخضع للعملية بعد.

يضحك ساخراً:

- كلفتها عالية جداً!

أكاد أقول: وحدها الخيانة باهظة، ووحده الموت أغلى ثمناً. فأتذكر بأن الوضع لا يحتاج إلى شعر أو كلام مقفى. فأصمت.

يقول:

- سأزوره في الغد.. هل تودّ أن تأتي؟

إنه السؤال الأصعب الذي لم يحدث أن مرّ عليّ من قبل.. لا في المدرسة.. لا في الجامعات التي تخصصت فيها.. لا في الحياة.. ولا في دعوة خاصة من امرأة.. سؤال قد يكون له إجابتان حتميتان: (نعم) أو (كلا)

فأفكر وأحاول أن أتذكر الأشياء التي علّمتني إياها الحياة، علّها تساعدني في إيجاد جواب أو قرار أتّخذه. وتأتيني تلك الفكرة مسرعة: لا تصدّق من تظاهر بالموت بعد أن جرحك ذات يوم... فهو هذه المرةسيرديك قتيلاً!

أجيب:

- كلا.

أرى في عينيه بعض التساؤلات.. ولأسكّر الطريق أمامه أواصل مستعجلاً:

- عليّ أن أذهب الآن.. أراك لا حقاً.

أعود إلى منزلي محاولاً أن أنسى أنني التقيت ذاك الرجل الذي ما عدت أذكر اسمه.

وأحاول أن أكتب فأرمي القلم جانباً وأجهش باكياً، لأنني بعد هذا العمر افتقدتك حقاً! ولأنني خائف من الموت.. ولأنني لا أريد أن أبكي عليك مرة ثانية.. وأيضاً لأنني أتمنى أن أراك مرة أخرى.. أخيرة.. مرة واحدة قبل أن تموت.. لكن في الواقع.. لا أدري!

وأحاول أن أكمل هذه الرواية وأكتب ما حصل بعد زواجها من جاد.

سنوات مرّت على زواجها من جاد.

سنوات انقطع كلّ شيء بيننا. لا أدري أين كانت هي، وأيّ حياة كانت تعيش.. لا أدري ما إذا حظيت بالسعادة التي لطالما حلمت بها.

هل كان جاد رجل أحلامها؟ هل عاشت حقاً حياة الشعراء؟ وهل حققت معه الهناء الذي تريده كل امرأة؟

كانت امرأة الرحيل.. تعطيك رائحة السعادة، ولا تطعمك منها. ولذا، قرّرت أن تترك جاداً وترحل عنه.

هي التي عند كلّ مفترق قتلت رجلاً، وأحيت آخر.. امرأة الحزن والحرمان.. متى تموت؟!

كنت أعتقد أن لكل مدينة كلماتها.. أحلامها..

خيباتها.. لكل منها حروبها، وفي حاناتها آثار جرائمها.. لكن هي! هي المرأة الوحيدة التي لا يمكنك أن تفهم شيئاً من تاريخها.. لا من الرجال الذين قتلت، ولا من منهم كاد يقتلها.. لا من مرّ على جسدها، ولا حتى الأجساد التي سقطت أمام فتوحاتها.. هي المدينة الصامتة التي خبّأت أسلحتها تحت حطام الرغبة وركام الإغراء.. ما أشقاك بها امرأة من غبار؟!

هي التي لا ترفض سفكاً.. لعلّها "العراق" تلك الأرض التي لم ترتوِ منذ الوقيعة الأولى. هي التي زاروها جميعاً من الأئمة المعصومين حتى أبي نوّاس السكران.. من حمورابي حتى هارون الرشيد.. والكل الذين ما زالوا يموتون بها حتى اليوم.. هي شهرزاد التي قتلت كل يوم شهريار.. هي المرأة البغدادية التي لم تكتفِ كرّاً وبلاءً.

لعلها أصبحت اليوم تلك المرأة العسكرية لفرط ما مرّ بها.. كانت المرأة التي أتعبتها حروب الرغبة.. عسكرية العواطف لا يهزها القصف العشوائي للحواس.. وكانوا هم رجال الثورة جسداً.. كان "كوبا" العشق تنخر قلوبهم، كما نخرت "كوبا" الثورة في دم أرنستو تشي غيفارا وكانوا يحتاجونها كما احتجات العروبة إلى أمثال عبد النّاصر.. هي الأقصى وقدس جميع الرجال.. ألم تكن قدسية الروح والعاطفة.. وربما الرغبة؟ تلك العاصمة التي طمع بها كل بشري منذ أزمان؟!

تركت جاداً إذاً . .

مرّت الأيام وراحت تستعيد حياتها من جديد، في منزل أهلها .

جلست على شرفتها،وقد وضعت أمامها تلك العلبة الخشبية لذكريات الماضي. وراح الماضي تدريجياً يعود في شريطٍ للذاكرة عبر أشياء كانت رسائل، وربما هدايا صغيرة، كقطعة خشبية حفر اسمها عليها . . أو كورقة شجر بائسة .

فكّرت في العودة إذاً إلى من عشقها للمرة الأولى طفلة . . للمرة الثانية حسناء جميلة، وللمرة الثالثة زوجة لرجل . . ليس هو . .

راحت تفكّر أخيراً بأنها تريد أن تستعيد ذلك الرجل الذي رحّلته رغماً عنه والذي أصبح اليوم شبه ميت في مستشفى أتمنى لو أتجرأ أن أزوره غداً.

قبل اليوم بخمسة عشر سنة تركت جاد وأرسلت إليه!

«أنتَ . .

لقد ربحتُ المعارك كلّها . . ولكنّني في كلّ معركة ربحتها، عدت وسعادتي في الهزيمة.

من لا يخطئ لا يفعل شيئاً . . وعندما لا تملك شيئاً لن يكون لديك ما تخسره . . أعلم أنني أمضيت عمري أعيش بالطريقة الخطأ . . قتلتك كثيراً، لكنني اليوم فقط قرّرت أن

أعود.. اليوم فقط اكتشفت كم كنت سأكون ثريةً بك.. أنت رجل الجنون والعشق.. أنت رجل الحب والسعادة.. قلت لي: لا بأس بأن نكسر قوانيننا الخاصة.

وَعَدَتْني بأن ترحل، وحقاً فعلتَ... أريدك الآن أن تكسر قانونك الأخير مرةً أخرى، وأن تتنازل عن وعدك الحاسم بأنك سترحل..أتذكر ذلك المكان الذي التقينا فيه للمرة الأولى..حيث كنا صغاراً على الشاطئ نبني قصوراً من الرمال؟!

سأنتظرك هناك.

أحبّك!

***

دقّت ساعة الخطر والتساؤلات.. دقّت ساعة طال انتظارها.. دقّت ساعة جاء موعدها منذ زمن ولم تأتِ..

وصَلتْ إلى المكان.. بفستانها الأسود..

لم يكن هناك وجود لأي إنسان..

فتّشت..

صرخت..

بكت..

لا تصرخي كثيراً يا سيدتي.. لن يسمعك.

لا تأتي إلى حيث هو.. لن يراك.

لا تقاربي جسده.. لن يلمسك.

لا ترتكبي أي حماقة أخرى.. ألم تكن الفجيعة الأولى كافيةً لك؟ لأنانيتك؟

لا تصرخي كثيراً يا سيدتي.. لم يعد له آذان تسمعك، لقد تخلّت عنه الحواس يوم قرر التخلي عنك، وانهارت مسامعه من بعدك، وفقد إحساسه بغيرك، وعميت عيناه بعد أن انتهى من لقائك...

بحثتْ بين الرمال.. علّها تصل إلى دليل.. إلى برّ أمان..

لكنّها وصلت إلى الـ.. لاشيء.

نظر إليها من بعيد..

استدار ورحل..

***

الكاتب هو المخلوق الوحيد الذي يصدق أكاذيبه.

آلاف البشر سيقرأون هذا الكتاب، لكنّك وحدك ستقرأه من كرسي أخرى للدهشة، لأنّك وحدك تدري من هو أنت.

وها أنا أخيراً، أحاول قلب الصفحة الأخيرة، لأقول كلمتي الأخيرة.

ولعلّها الكلمة المفتاح التي بها بدأت أكتب كل شيء..
تلك التي جمعت رغبتَي الحب والانتقام معاً.

هل تكون الصفحة الأخيرة الصفحة الأكثر حملاً دائماً؟
ألأنّها هي التي بها نقول كل الكلام الذي لم نستطع يوماً قوله، أو أقصد، ذلك الكلام الذي لطالما قلناه ولن نقوله بعد اليوم؟

إنّها الصفحة الأخيرة التي نقول فيها آخر كلمة حب وانتقام..

أخيراً سأقرأ لك هذه الكلمات.. فَعُد إلى هذه الصفحات بين عمر وآخر.. عد إليها بين نسيان وذاكرة.

يمكنك بعد اليوم،أن تقرأ هذه القصّة من جديد، هذه التي تشبه تماماً قصّتنا،أو قصّتنا التي ستشبه ذات يوم هذه القصة تماماً. عُدْإليها، واهمس لي منعطفاتهاسراً، لأنّني قد أنسى.. لأنّني بعد ذاكرة في كتاب، قد أعلنت النسيان.

اليوم قبل أن أسافر سأغلق هذا الكتاب إلى الأبد.

هذه هي قصتنا الجميلة التي سنتمكن بعد اليوم من أن نعيشها أكثر من مرة.. فقط في ذاكرة.

هذه هي قصتنا الجميلة، التي كادت يوماً أن تكون الأجمل.

أكتب في كتاب آخر كل ما نسيت أن أكتبه، تلك الأشياء التي حفظها قلبك عن ظهر ذاكرة.

فأنا لن أكتب بعد اليوم.. جريمة واحدة تكفي.. وعنوان واحد يكفي.

استغرقتني كتابة الرواية شهرين، تلك التي قد تأخذ بي أكثر من عقدين كي أنسى.

شهرين وما زلتُ أسمع صوت أمي ينادي من خلف الباب:

- لقد أصبح الفطور جاهزاً.

فأتردد وأخرج متأخراً لأنني كالعادة منهمك في الكتابة، وقد عودتني الأيام على احتساء الأشياء باردة.

لكنني اليوم أخرج مسرعاً إليها، وببهجة لم أعرفها من قبل، مرتدياً ملابس جديدة لأنني مسافر غداً.. غداً أنا مسافر، والحقائب عند الباب تنتظر. فمن حقّ أمي أن تحظى بفرصة جلوس أخير معي إلى المائدة قبل أن تعود هي إلى بيتها، وتقلع الطائرة بي إلى هوليوود مساء الغد.

غداً أنا مسافر إلى هوليوود وما زلت مؤمناً بأن ثَمة شيئاً ما ينتظرني هناك، وبأنني أخيراً سأستطيع أن أنسى كل الذي حدث.

أنـا الـذي قـال لـك ذات يـوم: «وحـدهـا الأحـلام لا تتحقَّق».

كيف لي ألاّ أدخل إلى كلماتي شيئاً من المعادلة وأعيد قولي بطريقة أخرى:

«حتى الأحلام.. تتحقق..».

على الفطور تحدثنا كثيراً، ما لم نقله خلال شهرين. أخبرتني أمي بكل الذي حصل معها أثناء دراستي في لندن، وحاولت عبثاً أن أقنعها بأنني في هوليوود سأجد فرص عمل في مجال التمثيل والإخراج أكثر من لبنان.

ووعدتها.. ذاك الوعد الذي لا أدري إذا كنت سأنفذه حقاً.

قالت:

- متى ستحقق حلمي وتتزوج؟

ابتسمتُ:

- أعدك، لن أعود إلى هنا غير متزوج!

وأتساءل.. كيف لرجل في سنّ الرحيل أن يعيش من أجل احتمال لقاء؟!

فيخونها صوتها وكأن قلبها قد وثب دقة:

- وإن لم تتزوج!

ضحكتُ، ووضعت قبلة على رأسها:

- سأذهب إلى الكاتب العدل، عليّ أن أنتهي من بعض المعاملات. قد يأتون بعد الظهر ليفرغوا المنزل من الأثاث.. سأعود في المساء إن شاء الله.

أمضي على الأوراق دون أن أقرأ حرفاً واحداً من العقد.. أمضي على بياض.

أنتهي من توقيع أوراق دون أن أعي أي نوع من الحماقات كانت هذه.. لو كان أبي موجوداً، هل سيرضى بالذي أنا فاعله؟

أخاف.. فأنسى أبي، وأعود إلى المنزل في المساء لأرى أمي قد انتهت للتو من جولة البكاء.. أكانت جولتها العاشرة أم الألف؟!

ليس القدر.. إنها مهى!

لأنني غداً مسافر إليها أنا.. غداً أنا مسافر.

مهى التي بميم الموت بدأ اسمها.. لحقتها هاء الهوى بسرعة رصاصة كعشقها.. أما الألف، فقد استبدلت بأخرى مقصورة في تجويفتها أساطير كثيرة رغبة وحذراً.. منعاً لالتقاء عشقين!

غداً أنا مسافر.. إنه الغد.

أمي تنتظر في السيارة وأنا ألقي نظرة أخيرة على المنزل الذي لن أراه مجدداً. نظرة أخيرة من شرفة إلى ضيعة كانت ضيعتي وغدت اليوم ضائعة في أحشاء ذاكرتي.

ألقي نظرةً على أيام طفولتي. هنا أكلت.. وهنا بنيت مسرحاً صغيراً عندما كنت دون العاشرة أحلم بشهرة سأقطفها اليوم وقصة أصبحت الآن قيد التنفيذ.. هنا لعبت.. هنا رأيت أمي حزينة عندما خانها أبي.. هنا بكيت.. وتعثرت للمرة الأولى، أولاً بحجر، ثانياً بصداقة، وثالثاً بكتاب ما كنت أدري أنه كتابي.

أنتقل من مكان إلى آخر في بيت بعته البارحة، وما عاد بيتي. أقفل الأبواب على الغرف الفارغة. وأفكر بذاك الطعم الغريب لسعادة التخلي عن الأشياء.

ها هو ذا الرحيل نضج، فتشجع أيها العاشق المتردد، أنت القابع في شرايين ذاكرة أتلفها الشقاء. والمعلّق إلى كلمات كُتبت ذات يوم على حائط، أو جذع شجرة أخذتها الرياح.. أنت الذي يمشي مثقل الخطوات على يمينك امرأة، وعلى يسارك وطن. والذي علّمته الطفولة تجنب الأراضي الملغومة، وألبسته الحياة جعبةً،أليس مخجلاً أن تصطدم كلّما هممت واقفاً بعبوة اسمها فتاة وأخرى اسمها لبنان؟!

تشجع أيها العاشق المتردد، فما من شيء يستحق التمرد..

تمضي ببطء وعلى مقربة من خيبتك ثمة سكة حديدية يرقص عليها الوقت مسرعاً.. قم! فما من حبيب يستحق الانتظار.. وما من صديق يستحق الكتابة.. تحرّك وتوقف عن حرق نصف صور، وتمزيق مفكرات لمواعيد لم تحدث.. كفّ عن البحث عن أسماء غيّرت المياه معالم حبرها.

فوحده الذي كتبه القلب يبقى.. ووحدها مواعيدنا التي لم تحدث جميلة.

لكن موعد الرحيل حان، وأشرفتُ أغلق الباب الأخير لغرفة، فيرن الهاتف.. في رنته صوت قنبلة! فأقف دون أن أتحرك وكأنه سينفجر. ثم أتذكّر، إنه الهاتف..

يرنّ من جديد.. فأفكر، من هو الذي أتى في اللحظة الأخيرة قبل موعد سفري بأسطر.

بي فضول كي أجيب، وبي خوف أيضاً.

الهاتف ما زال يرن.. أقترب.. وأتساءل، هم الذين أتوا البارحة ونقلوا كل ما في المنزل من أثاث بأي حق يتركون لي هاتفاً يرن؟!

لعلّها الحياة، فنحن مهما تركنا خلفنا، ومهما أقفلنا الأبواب بإحكام، ثمة شيء ما سيبقى يرن داخلنا أينما ذهبنا.

الهاتف يرن، أضع يدي على السماعة لأجيب.. فيصمت!

تباً.. نأتي الأشياء متأخّرة وننتظر مكاننا علّها تعود.. علّها الشمعة تشتعل من جديد.. علّها الأحلام تتحقق..

فأدير ظهري إلى الأشياء كلّها لأن ثمة قصة أخرى كتبها القدر تنتظرني.. وسأكون أنا بطلها.. أقترب من المدخل وأفتح الباب لأخرج وفي عيني دمعة الفراق.. فيعيد الهاتف دقته. أسرع إليه كمن وجد حجةً للبقاء أكثر.

- آلو...

إنه صوت امرأة. أقول:

- أهلاً!

- مرحباً سيدي، أنا أكلمك من المستشفى الحكومي الوطني، لقد وصلنا البارحة مبلغ كبير من المال تبرعاً لعملية إحدى المرضى. ويبدو أنّك المتبرّع حسب رقم الهاتف؟!

آخذ نفساً عميقاً:

- أجل.. أنا هو.

- في الواقع، الملف أمامي الآن، ولكن اسمك ليس موجوداً هنا.. هل يمكنك أن تعطيني اسمك كي أضيفه إلى الملف؟

- كلا . .

ثم أضفت أمام وقاحتي:

- أبقِ حانة الاسم فارغة.

- عذراً، فأنا لم أقصد أن أزعجك. على أيّ حال العملية الجراحية لاستئصال المرض ستتم بعد نصف ساعة، لكن المريض يود أن يكلّمك قبل ذلك ليشكرك شخصياً على تبرعك بهذا المبلغ الخيالي.. عليك أن ترى السعادة على وجه ذاك الرجل. فرحته لا توصف. بهجته عمياء...

أُبعد السماعة عن أذني لأقطع الاتصال، فيبتعد صوتها وهي تقول:

- لحظات قليلة وأحوّل الخط إلى غرفته، المريض اسمه...





من أيلول 2008

لغاية

22 شباط 2010 الساعة الثالثة والربع فجراً

المحتويات

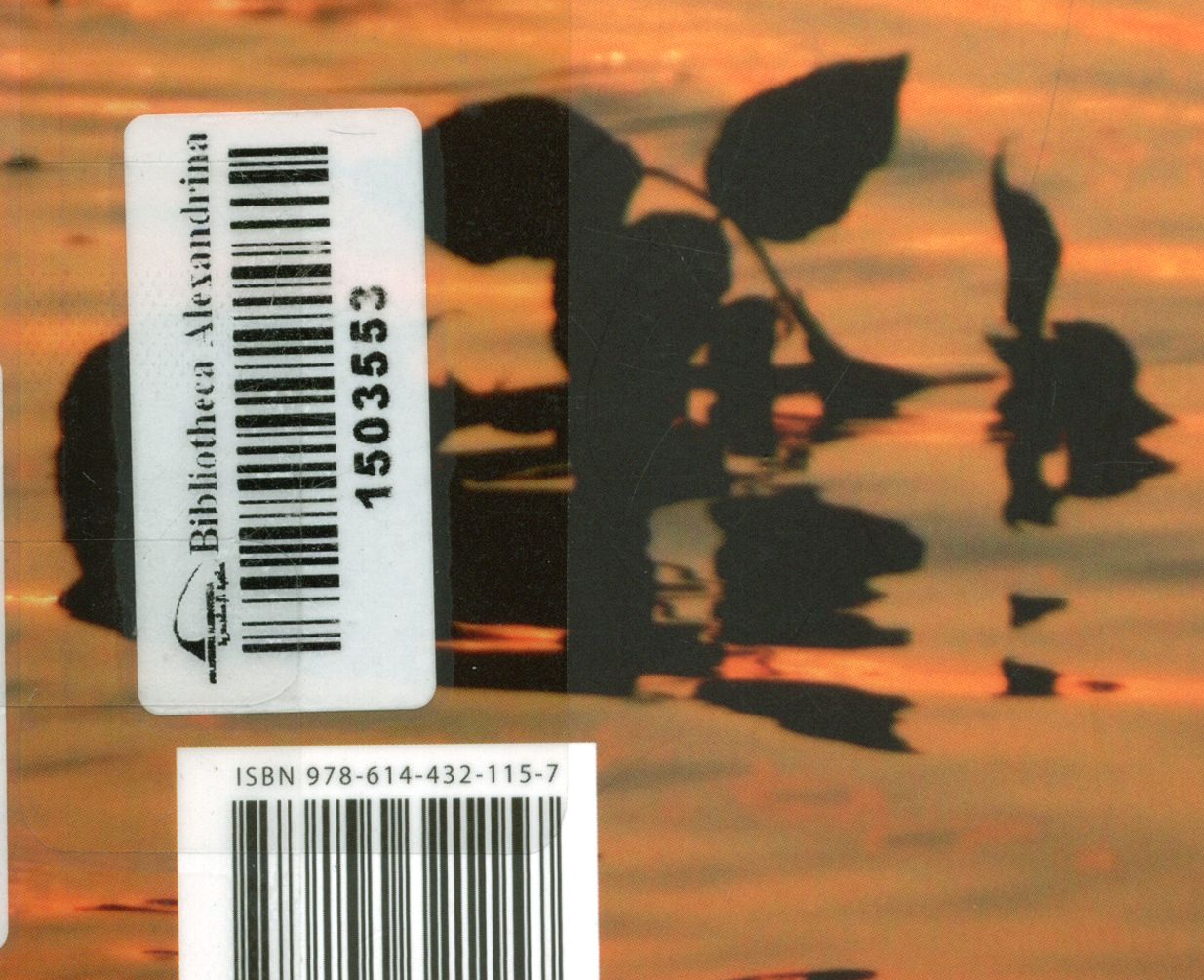
لقد استطاع بشير أبوزيد من خلال هذه الرواية أن يثبت لجميع القرّاء، صغاراً وكباراً، جهالاً ومتنوّرين، سيحجز مكاناً في عالم الإبداع والمبدعين..

قلّما نرى شاباً يعيش جميع مراحل العمر في آن واحد..هو شاب في عمر المراهقة، يملك براءة الأطفال وحنانهم، ثورة الشباب وتمرّدهم، نضج الرجال وفصاحتهم، حكمة الشيوخ وعقلانيتهم.

يروي بشير في هذا الكتاب قصة، على غرار ما سبقها من قصص، قصة حبّ لم تجمع بين أحد! في منعطفاتها مزيج من الطفولة الرجولية، الوفاء الخائن، التهذيب الإباحي، التحفظ المنفتح، والغرور المتواضع.

بشير أبوزيد، لبناني مواليد 1991.

«عذراً... أحببتك» هي روايته الأولى، وأوّل إصدار له.



ISBN 978-614-432-115-7
9 786144 321157